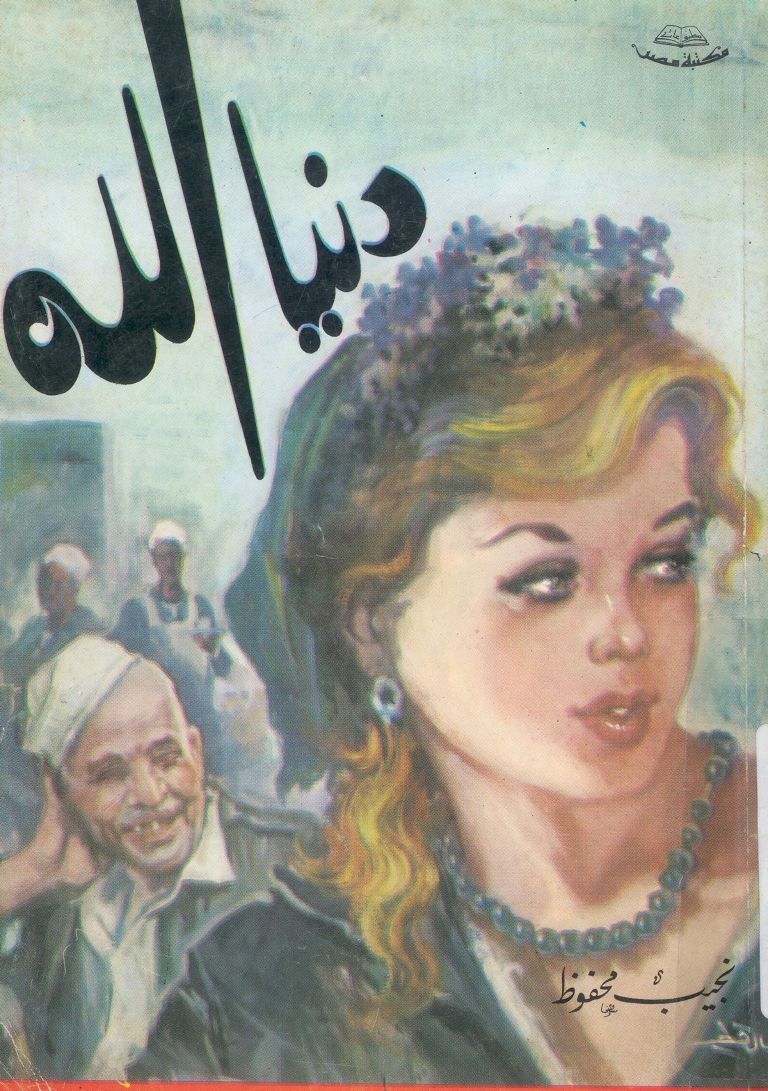

مكتبة مصر
دنيا الله
نجيب محفوظ


دنيا الله

نجيب محفوظ



الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"
سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى

دنيا الله

دبت الحياة فى ادارة السكرتارية بدخول عم ابراهيم الفراش • فتح النوافذ واحدة بعد أخرى ، ومضى يكنس أرض الحجرة الواسعة بلب شارد ودون اكتراث • واهتز رأســه بانتظام وبطء ، وتحرك شدقاه كأنما يلوك شيئا • فقلقت تبعا لذلك منابت الشعر الأبيض فى ذقنه وعارضيه ، أما صلعته فلم تكن بها شعرة واحدة • وعاد الى المكاتب ينفض عنها الغبار ويرتب الملفات والأدوات ، ثم ألقى على الحجرة ـ الادارة ـ نظرة شاملة ، ثم نقل بصره بين المكاتب وكأنما يرى شخوص أصحابها ، فلاح الارتياح فى وجهــه حينــا والامتعاض حينا ومرة ابتسم ، ثم ذهب وهو يقول لنفسه : « الآن نذهب لاحضار الفطور » •

وكان السيد أحمد كاتب المحفوظات أول من حضر ، جاء بكاهل ينوء بخمسين عاما ووجه نقش على صفحته امتعاض ثابت كأنه ســجل لقرف الزمن • وتبعه الســيد مصطفى الكاتب على الآلة الكاتبة الذى يضحك كثيرا لكنه ضــحك متوتر يدارى به همومه اليومية • ثم جاء سمير أو الرجل الغامض كما يدعى فى الادارة ، والجندى الذى ينم تطلق أســاريره على أنه لم يخرج من نعمــة الطفولة • ودخــل يتبختر الســيد مصطفى ، أنيقا ذهبى الخاتم والساعة ودبوس الكرافتة ، ولحق به حمام رقيقا نحيفــا منطويا على نفسه • وأخيرا حضر سيادة مدير الادارة ، الأستاذ كامل ، محوطا بهــالة من وقار ، وفى يده مســبحة • وضجت الادارة بالأصوات وخشخشة الأوراق • ولكن أحدا لم يشرع فى عمــل ، حتى المدير انهمك فى مكالمة تليفونية ، وانطلقت صفحات الجرائد فى الجو كالأعلام • وقال لطفى وهو يتابع الأخبار بعينيه :

ـ ستكون السنة نهاية العالم ٠٠

وعلا صوت المدير وهو يقول متهللا فى التليفون :

ـ وهل يخفى القمر ؟

وتساءل سمير :

ـ لماذا نشقى بالزواج والأبناء ، ها هو شاب يقتل أباه تحت بصر أمه !

كذلك تساءل أحمد بصوت متحشرج :

ـ ما فائدة كتابة روشـــــتة اذا كان الدواء غير موجـــود بالسوق !

ولبث الجندى يرمى ببصره من مجلسه الى عيادة دكتور فى العمارة المواجهة يرصد ظهور ممرضة ألمانية شقراء فى النافذة ثم عاد لطفى يقول مؤكدا :

ـ صدقونى ، نهاية العالم أقرب مما تتصورون ٠٠

ووضع المدير يده على السماعة وقال لحمام آمرا :

ـ جهز الملف ١ ـ ٣ / ١٣٠ عام ٠٠

ثم عاد الى المحادثة الشائقة فلم يرفع حمام رأسه عن الجريدة وهمس بين أسنانه « داهية فى أمك ! » ٠ واذا بعم ابراهيم يعود بصينية ممتلئة ٠ وراح يوزع سندوتشات الفول والطعمية والجبن والحلاوة الطحينية ٠ وطحنت الأفواه الطعام وتجاوب التمطق فى الأركان ولم تتحول الأعين عن أعمدة الصحف ٠ ووقف عم ابراهيم عند مدخل الادارة يرقب الآكلين بنظرة غريبة من عينيه الذابلتين حتى هتف به أحمد بصوت يعترضه الطعام .

ـ كشف الماهيات يا عم ابراهيم ٠

فذهب الرجل ٠ وبعد ســـاعة من الوقت دخل الحجرة بائع الكرفتات والروائح العطـــرية الذى يزور الادارة عادة فى أول

الشهر · ومر بالمكاتب عارضاً بضاعته فاقبل الموظفون يتفحصونها وأخذ بعضهم ما يحتاجه منها ، وغادر الرجل الحجرة على أن يعود اليها بعد قبض الماهيات ، وبعد ساعة أخرى جاء بياع السمن ليجمع الأقساط المستحقة ، ولكن مصطفى قال له بلهجة ذات معنى وهو يضحك :

ـ انتظر حتى يرجع عم ابراهيم ··

فوقف الرجل عند الباب وشفتاه تتحركان بتلاوة مستمرة · وكانت الآلة الكاتبة تنقر بنشاط ، على حين انتقل سمير الى المدير ليعرض أوراقا هامة · ودخلت الشمس لأول مرة من النافذة المطلة على الميدان · وما زال الجندى يختلس النظرات الى نافذة العيادة · ونادى المدير عم ابراهيم لأمر فذكره مصطفى بأنه لم يرجع بعد من الخزينة ، وعند ذاك تساءل أحمد رافعا رأسه عن الملفات :

ـ الرجل تأخر ! ، لماذا تأخر الرجل ؟! ··

وذهب بياع السمن ليمر بالادارات الأخر ثم يعود · وهب أحمد الى خارج الحجرة ونظر يمنة ويسرة فى الطرقة ثم عاد وهو يقول :

ـ لا أثر له ، ماذا أخره ، الرجل المخرف !

ولما مرت ساعة ثالثة فقد أحمد صبره فقام وهو يعلن بصوت مسموع أنه ذاهب الى الخزينة للبحث عن الرجل · ثم عاد بوجه طافح بالغيظ وهو يقول :

ـ أخذ الكشف منذ ساعة كاملة ، فأين ذهب المجنون ؟

فسأله لطفى :

ـ هل قبض مرتبه ؟

فأجاب محتدا :

ـ نعم ، قالوا لى ذلك عند شباك صرف الخدم السايرة ··

ـ لعله ذهب يتسوق !

ـ قبل أن يسلمنا الماهيات ؟!

ـ لا تستبعد ذلك ، انه يأتى كل يوم بجديد ..

وارتسم الاســـتياء على وجوه ، وقطب المدير ـ وهو درجة رابعة قديم ـ وساد صمت قصير ما لبث أن قطعه مصطفى بضحكة من ضحكاته ثم قال :

ـ تصوروا أنه سرق فى الطريق !

فندت ضحكات فاترة ، فاترة جدا ، كأنها تأوهات متنكرة ، غير أن لطفى قال :

ـ أو وقع له حادث !

ولما انس فى الوجوه استياء استدرك قائلا :

ـ ما يدوس عم ابراهيم اليوم فانما يدوس ادارة كاملة ..

فقال أحمد بحدة :

ـ الا من وراءه خزينة خاصة !

وارتاح الجميع الى قوله تشفيا غير أن المدير نقر على مكتبه بقلمه الباركر المهدى اليه فى مناسبة سعيدة ، داعيا الادارة الى ضبط النفس ، وكان فى الحقيقة يدارى قلقه المتزايد ، ولكن الجندى تساءل رغم ذلك :

ـ ماذا يحدث للنقود فى هذه الأحوال ؟

ـ كحال السرقة ؟

ولم يضحك أحد فعاد الجندى يتساءل :

ـ فى حال الحوادث ؟

ـ قد تسرق فى الزحمة ، وقد يتحفظ عليها فى قسم البوليس حتى تتضح الحقائق ، ومت يا حمار !

ولكن بدا أن مملكة الضـــحك قد جدبت تماما . بدت الوجوه كالحة ومضى الوقت أثقل من المرض . وتساءل صوت « على وجه من أصـــبحنا اليوم ؟ » . وذهب أحمد يبحث عن عم ابراهيم فى

المراقبة كلها ثم عاد بوجه ناطق بخيبة مسـعاه • وفكر المدير فى المشكلة الغريبة التى لم تدر لأحد فى بال • انه يأبى أن يصدق • سيظهر الرجل المجنون فجأة عند الباب • ستنهال عليه الشتائم وسينتحل كافة الأعذار • والا فما العمل ؟ • لطفى وراءه زوجة غنية ، وسمير وغد معروف ولكن ثمة مساكين مثل أحمد قد يقضى عليهم الحادث ! • وعاد بياع السمن ، وقبل أن يفتح فاه صاح به المدير :

ــ انتظر ، القيامة لم تقم ، ونحن فى ادارة حكوميـة لا فى سوق ••

فتراجع الرجل مذهولا ، وزار الادارة موظفون من المراقبة يستطلعون الأحوال ، وهم بعضهم بالمداعبة ولكنهم وجدوا جوا مكفهرا فتلاشت الدعابات فى حلوقهم ، وتجسد القلق وكف الجميع عن العمل • وتأوه أحمد قائلا :

ــ قلبى يحدثنى بأن المسألة جد ! ضعنا يا جماعة ••

ثم هب واقفا وهو يقول : « سأسأل عنـه بواب الوزارة » • واختفى مهرولا • ثم عاد وهو يصيح بصوت ثائر :

ــ البواب يؤكد أنه رآه يغادر الوزارة حوالى التاسعة صباحا !

ثم بصوت مختنق :

ــ أفظع من كارثة ، لا يمكن أن يبيع حياته بمائة وخمسين جنيها أو مائتين ، حادث ؟! ، من يدرى ، هذا الشهر لن نعرف له نهاية يا رب السماوات !

وشعر لطفى بأن بعض الأنظار تتجه نحوه من حين لحين فقال منقبض القلب :

ــ انها أفظع من كارثة ، لعلكم تتساءلون ماذا يهمنى أنا ! ، والحق أن زوجتى الغنية لا تنفق مليما واحدا من مالها ••

وانصبت عليه فى السر عشرات اللعنـــات ، ولم يعره أحـــد التفاتا • وتأوه أحمد قائلا :

ـ أتصدقون بالله ؟ ، والله الذى لا اله الاه انى من اليوم الثانى فى الشهر أذهب وأجىء وليس فى جيبى مليم واحد ، لا قهوة ولا شاى ولا سيجارة ولا استعمال لاى نوع من المواصلات ، أولاد فى الثانوى وأولاد فى الجامعة ودين كبير بسبب الأدوية ، وماذا يمكن أن أفعل يا اله الكون ؟!

ولما جاوزت الساعة الواحدة وقف مدير الادارة بوجه كئيب ، وابتعد عن مكتبه وهو يقول :

ـ لا بد من ابلاغ المراقب العام •

واستمع المراقب العام الى القصـــة فى امتعاض ظاهر ، ثم تساءل :

ـ الا يجوز أن يرجع رغم الظنون ؟

ـ الحق أنى يائس تماما من ذلك ، الساعة تدور فى الثانية ••

فقال المراقب العام بلهجة منتقدة :

ـ أنت تعلم أن تصرفكم خاطىء ومخالف للتعليمات ••

فانجحر المدير فى صمت يائس مليا ثم تمتم :

ـ جميع الادارات تفعل ذلك ••

ـ ولو ! ، الخطأ لا يبرر الخطأ ، اكتب لى مذكـــرة لأرفعها لوكيل الوزارة ••

ولكن المدير لم يتحول عن موقفه وقال :

ـ الجميع فى أشد الحاجة الى مرتباتهم ، هذه حالة لم تسبق بمثيل ••

ـ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ نحن لم نتسلم المرتبات ولم نوقع فى الكشف ••

ـ لا يمكن انكار الواقعة ، ولا التهرب من المسئولية ٠٠

وتكاثف الصمت وبدا المدير كرجل ضائع ، وضاق المراقب به فتشاغل بالنظر فى أوراق على مكتبه ٠ حتى تحول المدير عن موقفه ومضى نحو الباب فى خطوات ثقيلة جدا ٠ وقبيل خروجه جاءه صوت المراقب وهو يقول فى جفاء :

ـ أبلغوا البوليس ٠٠

انتقلت ادارة السكرتارية الى نقطة البوليس ٠ وشقوا طريقهم الى حجرة الضابط بين نسوة جالسات القرفصاء ، تتقدمهم شرذمة من رجال متعاركين مخضبين بالدماء يسوقهم عسكرى ، على حين تعالى من وراء باب مغلق صراخ اليم واستغاثات ٠ وأفضى السيد كامل المدير الى الضابط بالحكاية من أولها الى آخرها ٠ وقال عن عم ابراهيم انه فراش فى الخامسة والخمسين ، دخل خدمة الوزارة وهو فى العاشرة عاملا بالمطبعة ، ثم نقل فراشا لتطاوله على رئيسه ، وأجره الأصلى ستة جنيهات ٠ وقال عنه موظفو السكرتارية انه كان طيبا وان يكن به شذوذ محتمل كأن يشرد أحيانا حتى وهو يحدثك أو يتدخل فيما لا يعنيه أو يتطوع بذكر ملاحظات عامة فى السياسة دون مناسبة ، وعن مسكنه قيل انه يقيم بالبيت رقم ١١١ بدرب الحلة ، ولم يسبق له أن سرق أو أتى ما يستوجب الشك فى ذمته ٠ وقال الضابط بعد تحرير المحضر ان النقطة ستتأكد أولا أنه ليس ضحية لحادث من الحوادث ثم يتخذ البحث مجراه ٠ ولم يجد الموظفون بدا من الانصراف فغادروا النقطة كالمساطيل من الذهول ٠ واختلطت أصواتهم وهم يتبادلون التشكى والتساؤل عما يمكن عمله ازاء مسئولياتهم الخطيرة التى تنتظرهم فى البيوت ٠ وشملتهم رغبة واحدة فى أن يبقوا معا حتى يجدوا لمشكلتهم حلا ٠ غير أنهم اضطروا فى النهاية الى التفرق فمضى كل الى حال سبيله ٠ عاد مدير الأدارة الى بيته ولا أمل له

الا فى البوكر أو الكونكان • وقصـــد مصطفى الكاتب على الآلة الكاتبة محل رهونات بباب الشعرية اعتاد فى الأزمات أن يقترض منه بربح فاحش • أما لطفى فكانت زوجتـــه تتكفل بنفقات البيت ولكن كان عليه أن يبتدع حيلة ليأخذ منها مصـــروفه الشهرى • الجندى ـ وهو شـــاب أعزب ويعيش فى كنف أبيه ـ قرر أن يقول لوالده « تقبلنى هذا الشـــهر وكأننى ما زلت طالبا » • حمام كان عليه أن يقنع زوجته المشتركة فى جمعية توفير من الجيران بالمطالبة بنصيبها المخصص للكســـاء لانفاقه فى البيت مهما كلفه ذلك من سباب وعراك وبكاء • سمير بدا أمره هينا نوعا ، فما ان خلا الى نفســـه حتى قال : «لولا الرشوة لوجدت نفسى فى مأزق لا مخـــرج منه ! » • بقى أحمد كاتب المحفوظات الذى ظن الزملاء أن النهـــار لن يطلع عليه • مضى يتخبط فى الطريق بلا أدنى وعى لما حوله من أناس ومركبات • ودخـــل مسكنه متأوها أزرق الوجه فارتمى على أول مقعد وأغمض العينين • وأقبلت عليـــه الولية برائحة المطبخ متسائلة فى انزعاج :

ـ مالك ؟

ـ لا مرتب لنا هذا الشهر !

فقالت بدهشة :

ـ لم كفى الله الشر ؟ ! ، عم ابراهيم جاء بمـــرتبك فى أول النهار !

وثب الرجـــل قائما كغريق وجد آخر الأمر متنفسا على حين ذهبت الولية وجاءت بلفة من الأوراق المالية وجـــد فيها مرتبه كاملا ! • استخفه الطرب لحد الجنون فبســـط يديه وهتف من الأعماق : « الله يكرمك يا عم ابراهيم •• الله يجبر بخاطرك يا عم ابراهيم » •

***

وكبس البوليس بيت عم ابراهيم بدرب الحلة · وكان المسكن عبارة عن حجرة أرضية بحوش بيت قديم تهدم ســوره أو كاد · ولم يكن بالحجرة الا مرتبة متهرئة وحصيرة وكانون وحلة وطبق صاج وامرأة عجوز عوراء تبين أنها زوجته ، ولما سئلت عن زوجها أجابت بأنه فى الوزارة ، ثم أكدت أنها لا تعرف شيئا عن اختفائه ، ولم يكن له من ثياب الا جلباب ففتشوه فعثروا على قطعة حشيش صــغيرة · وعادت القوة بالمرأة الى قسم البوليس ، وقالت المرأة انها لا تدرى شيئا عن هربه أو عن السرقة المتهم بها · وبكت طويلا وانتهرت طويلا · وقالت عن حياتهما المشــتركة انه كان فى مطلع الحياة زوجا طيبا وانهما أنجبا أبناء · من هؤلاء الأبناء عامل يعمل فى منطقة القنال منقطع الصلة بهم منذ ســنوات · وآخر قتل فى حادثة ترام وهو فى العاشرة · وبنت تزوجت من عامل بناء ذهب بها الى أقصى الصــعيد فاختفت من حياتهم كأخيهــا بالقنــال · واعترفت بأن عم ابراهيم تغير تغيرا خطيرا فى حياته فى الأشـــهر الأخيرة ، وبعد أن بلغ أعقل العمر ، اذ ترامت اليها أنباء عن تعلقه ببائعة ناصيب عند قهوة فؤاد ، وأن تلك الأنبـــاء سببت أكثر من عراك بينهما على مرأى من حارة الحلة كلها ·

انقض المخبرون على قهوة فؤاد ثم رجعوا الى القسم بمجموعة غريبة من جامعى الأعقاب بين الطفولة والمراهقة ، كما جاءوا ببعض ماسحى الأحذية · وتذكروا جميعا عم ابراهيم عند سماع أوصافه · قالوا انه كان يجلس فى الأشهر الأخيرة فى آخر كرسى فى الممر المتفرع عن الطريق العام ، يحتسى القهوة ويرنو الى الانجليزية ! بائعة ناصيب فى الســابعة عشرة ذات خصلات ذهبيــة وعينين زرقاوين ، كانت فى الأصل جامعة أعقاب كذلك ، واعترفوا جميعا على وجه التقريب بأنهم كانوا على علاقات خاصــة بها ، وأن ذلك

كان كذلك حتى مع بعض رواد القهوة من ذوى النفـــوس الجلوة المتواضعة ! · وكان عم ابراهيم شديد الاهتمام بهـا · رآها مرة وهو عابر سبيل · ولما أدرك أنها من معالم قهوة فؤاد اتخذ مجلسه فى نهاية الممر لمشـــاهدتها كل مساء ، وكان يدعوها ليبتاع ورقة ناصيب فى الظاهر ، وليبقيها أطول مدة ممكنة معـــه فى حقيقة الأمر · وفطنت الفتاة من أول الأمر الى ولعــه بهـــا فأفشت سره اليهم ، فراحوا يتجسسون عليه يوما بعد يوم متخذين اياه مزحة ودعابة وهو غافل عنهم بهيامه · ويوما أخبرتهم بأن الرجل يرغب فى الزواج منها ! · وأنه يعدها بحياة سعيدة خاليـــة من هموم العناء والتشرد · وضحكوا طويلا · اعتدوها نكتة لأن فكرة الزواج لا تطرق لهم بالا من ناحية ، ولأن الرجل أبعد ما يكون عن صورة العريس كما يتخيلونها من ناحية أخرى · وقال أحدهم ساخرا :

ـ انه يبدو كأحدنا !

فقالت بتيه :

ـ بل هو رجل غنى ··

وضحكوا كرة أخـــرى · لكن الفتاة انقطعت عن المجىء الى القهوة واختفت من مظانها جميعا !

وعلى العموم اطمأن البـــوليس الى أنه قبض على طـــرف الخيط · لكنه لم يكن يعلم أن الطرف الآخر فى أبى قير · أجل كان عم ابراهيم فى أبى قير · كان يجلس جلسة مريحة على الشاطىء يراوح النظر بين البحر وبين ياسمينة التى تطايرت خصـــلاتها الذهبية فى مهب النسائم · وبدا حليق الذقن مستور الصلعة تحت طاقية بيضاء كالحليب وعكست بشرته رواء · وارتدت ياســمينة فستانا أنيقا وتجلت نضارتها كالماء المقطر · جلسة عائلية سعيدة مريحة راضية وان لم يخل هواء ابريل من لســـعة برد · والمكان شــبه خال ، لا أحد من المصيفين جاء ، وأصـــحاب البيوت من

اليونانيين بعيدون عن الشاطىء • والحب يرفرف راقصا حول الجلسة الجميلة • وتجلت فى عينى عم ابراهيم نظرة تشوف ودهشة كأنه يستقبل العالم لأول مرة فى طفولة بريئة ، فما رأى بحرا من قبل ، بل انه لم يجاوز أعتاب القاهرة طيلة حياته ، لذلك بهره البحر المصطخب • والساحل المترامى ، والسماء الملفعة بالسحب البيضاء فى صفاء الورد • ومضى يصغى الى الهدير المتقطع وهو يبتسم ابتسامة فرحة سعيدة لا تفارق شفتيه • بدا أنه انطلق من أغلال الهموم وأنه يحلق فى حلم ، وأنه يستمتع بأنغام الحب الشجية التى ترددها أعماقه النشوى ، أما الفتاة فتمددت أمامه فى استرخاء واكتنفها صمت راكد حتى ثقلت جفونها بما يشى بالملل • وكان السيد لطفى الموظف بالسكرتارية هو الذى عرفه دون قصد بأبى قير • كان يصيف كل عام فى ذلك المصيف ويحكى عن جماله وهدوئه وأسماكه للزملاء قبل السفر وعقب العودة ، فامتلأ خيال عم ابراهيم بالمصيف ، ثم عرف أخيرا سبيله اليه • وجاءه مزودا بما يحتاجه شهر العسل من ثياب وأدوات زينة وهدايا ولوازم المزاج والكيف • وكان يومه كله ينقضى بين الحجرة المفروشة التى اكتراها وبين الساحل ، لا شاغل له الا الحب والمشاهدة والتدخين والأكل والشرب والأحاديث • وأنفق فى أسبوع ما لم ينفقه من قبل فى عام ، ولم تكن المحبوبة تكف عن الطلب ، وما أسرع ما كان يلبى طلباتها ، وكانت غريبة الأطوار فحتى الخمر والمخدرات طالبت بها • وكانت صريحة الى حد الايذاء فسألته مرة :

ـ من أين لك بالنقود ؟

فقال ضاحكا :

ـ أنا من الأعيان ••

فقالت بارتياب وقد ضرجت الخمر وجنتيها :



ـ أنا فاهمة ٠٠!

ـ الله يسامحك ٠٠!

وضحكت ضحكة بلهاء وهى تقول :

ـ ليس فيك الا أربع أسنان ، واحدة فوق وثلاث تحت ٠٠

وضحك متسامحا ٠ ربما حام حوله كدر ، ولكنه كان مصمما على السعادة ، السعادة التى يدرك أكثر من غيره كم هى زائلة ٠ لم يكن يطمع فى أكثر من الاحتفاظ بما نال من سعادة الى حين ، وألا يقع القبض عليه قبل أن تنهار دعائم سعادته انهيارها الطبيعى بانفاق آخر مليم مما يملك ٠ لذلك أصر على السعادة رغم ما يبدو من محبوبته من مشاكسة ٠ وتاقت نفسها الى رؤية الاسكندرية لكنه رفض باصرار فعادت تقول بمكر موروث عن الأرصفة :

ـ قلت لك فاهمة !

فكان جوابه أن ابتاع لها حلية لطيفة ، ووضع بين يديها فاكهة وشرابا وسجائر محرمة ، وقبل خدها المتورد وابتسم لها فى حنان قائلا :

ـ انظرى الى البحر والسماء ، واسعدى بما بين يديك ، وليكن ريقك شهدا ٠٠

أراد لها أن تسعد كما يسعد ٠ وكان من قبل يسير مطرق الرأس لا يرى من الدنيا الا التراب والطين ٠ أو لا يرى الا شواغله وهمومه ، أما هنا فرأى ما لم يكن يراه ٠ رأى الفجر فى طلعته السحرية والغروب فى عجائب ألوانه التى تنساب عن الشفق ٠ ورأى النجوم الساهرة والقمر الساطع والآفاق اللا متناهية ٠ رأى ذلك كله بقوة الحب الخالقة حتى عجب كيف يوجد بعد ذلك النكد ٠٠

وفى أوائل يونية ظهرت على الساحل أول أسرة جاءت مبكرة للتصييف فانقبض قلب عم ابراهيم وشعر بدنو الشقاء كالأجل ٠

ستولى السعادة قريبا والى الأبد • وزاده ذلك اصرارا على السعادة المتاحة فأشعل سجائره تباعا • ويوما كان عند البقال فلمح فى آخر الطريق السيد لطفى الموظف بالسكرتارية بصحبة سمسار من سماسرة المســاكن • سقط قلبه خوفا فمضى مسرعا الى عطفة جانبية ، ثم تســلل منها الى حجرته • جاء لطفى ليؤجر مسكنا لشهرى يولية وأغسطس كعادته كل صيف • وما هى الا أسابيع حتى يجوب الشــاطىء بالطول والعرض ولا يبقى له هو مكان • ان يد الخيبة تطرق بابه ولن يجد له مكانا • سينقضى الحلم مثل هذه السحابة المسرعة ، وستغادره محبوبته كزفيره • محبوبته التى يحبها رغم تململها وحدتها ولسانها المفلفل •• أجل يحبها ، ويشكر لها ما وهبته من سعادة ونفخت فيه من روح الشباب • فليسامحها الله وليسعدها الله • ووجد نفسه فى حجرته منفردا فراح يعد ما تبقى من النقود ثم لفها حول صــدره • وسمع حركة عند الباب فالتفت نحــوه فرآها قادمة • تســاءل ترى هل رأته ؟ • وقرأ فى عينيها نظرة ماكرة • لذلك طار النوم من عينيه عندما استلقى الى جانبها على الفراش • ومضى الليل فى أرق وفكر • وسمع صوتا حنونا فى أعماقه يقول له : « أوهبها النقود وسرحها » • فقال له : « لم تزل لى أيام » • فقال له « أوهبها النقود وسرحها » • الطفلة الجميلة المشردة من أبوها •• من أمها ؟•

قالت له مرة بكل بساطة :

ـ لا أحد لى فى الدنيا ••

كذلك هو ! • وأحس بشىء يلمســه كثعبان فى الظلام • تركز احساسه فى يدها المتلصصة • تسعى الى سرقته • الذلك بالغت فى انهاكه الماكرة حتى يغرق فى النوم ! • يا للتعاســة ! • وقبض على يدها • ندت عنها شهقة فى الظلام ثم ساد الصمت • وتساءل بحزن :

ـ لم ؟

ثم معاتبا :

ـ متى رفضت لك طلبا ؟

وهوت على يده فعضتها بوحشية حتى تأوه ودفعها بقوة . كانت أول حركة قاسية تبدر منه نحوها . ووثب الى مفتاح الكهرباء فاضاء الحجــــرة . نظر أول ما نظر الى معصمه الملطخ بالدم . وقال :

ـ صغيرة وبك هذا الشر كله !

رمقته بنظرة مستخزية لحظة ثم ولته ظهرها . وتساءل :

ـ كيف تسعين الى سرقة مالك ؟

فقطبت تقطيبة نمت عن حنق وضيق لكنها لم تنبس فعاد يقول :

ـ لا مطمع لى فى أكثر مما نلت ..

وضحك ضحكة مريرة وقال :

ـ ليجزك الله عنى خير الجزاء ..

وفى الصباح أعطاها أكثر ما تبقى لديه من مال وحزم متاعها ووصلها الى المحطة ..

ومن ثم أقفرت أبو قير . وتغير الحال رويدا وتقاطر المصيفون . وانتقل الى الاسكندرية ليهيم على وجهه دون مبالاة . ومرة وجـد نفسه أمام جامع أبى العباس فدخل . صلى ركعتين تحية للمسجد ثم جلس موليا وجهه نحو الجدار . كان يعانى حزنا جليلا ويأسـا رائعا . وناجى ربه همسا : « لا يمكن أن يرضيك ما حصـل لى ولا ما يحصل فى كل مكان . صـغيرة وجميلة وشريرة أيرضـيك هذا ! . وأبنائى أين هم .. أيرضيك هذا ؟! وأشـــعر وأنا بين الملايين بوحدة قاتلة . .أيرضيك هذا ؟ . » وأجهش فى البكاء . ولما أخذ يبتعد عن الجامع فاجاه صـــوت ينادى « عم ابراهيم » فالتفت مندهشا بلا ارادة فرأى جبارا يتقدم منه فى ظفـر وتشف

فأدرك من منظره أنه مخبر فتوقف مستسلما ٠ قبض الرجل على منكبيه وهو يقول :

ـ أتعبتنا فى البحث عنك ٠٠ الله يتعبك ٠٠

ولـــا وجده ـ وهو يسوقه أمامه ـ مستسلما محمر العينين قال :

ـ تقدر تقول لى ماذا دفعك الى تلك الفعلة وأنت فى هـــذا العمر !؟

ـ الله ٠٠

ندت عنه كالتنهدة ٠٠

جوار اللہ

دق جرس الباب الخارجى ففتحت الخادم الشراعة فرأت رجلا يرتدى جلبابا ، عارى الرأس ، غريب الوجه ، كانت بلا ريب تراه لأول مرة ، فطالعته بنظرة متسائلة ، واذا به يسأل :

ـ بيت سى عبد العظيم شلبى الموظف بالمساحة ؟

وجاء عبد العظيم على صوت الرجل ، متمهل المشية فى جلبابه الفضفاض مغطى الرأس بطاقية اتقاء للبرد ، فنظر الى القادم باستطلاع كما فعلت الخادم من قبل ثم سأله عما يريد ، فقال الرجل :

ـ لا مؤاخذه · أرسلنى الحاج مصطفى الدرديرى السمسار بالدرب الأحمر لأخبرك بأن الست عمتكم مريضة جدا ويلزم الحضور ··

فانفعل عبد العظيم باهتمام شديد وتساءل :

ـ ماذا حصل لها ؟

ـ لا أعرف يا سيدى ، وأنا قلت لحضرتك ما كلفنى به الحاج ·

ودعاه الى الدخول من قبيل المجاملة فشكر وذهب · وتحول عبد العظيم الى الداخل فوجد أخته تفيدة واقفة تنصت فقال لها :

ـ استعدى للذهاب الى بيت نظيرة ، الظاهر أنها ستودع ··

وعبد العظيم يقيم فى هذا البيت بشارع شبين الكوم بحدائق القبة هو وزوجته وأولاده الخمسة وأخته الكبرى تفيده وهى عانس فى الخمسين ، وكان والده فى الأصل من الدرب الأحمر ولكنه انتقل الى حدائق القبة منذ أربعين عاما وعبد العظيم طفل فى الخامسة · وانقطعت الأسباب رويدا بين الدرب الأحمر وحدائق القبة فيما عدا زيارات الست نظيرة لهم من حين لآخر ، وهى فى الحقيقة عمة أبيه

لا عمته هو وفى الثمانين من عمرها ، عانس مثل تفيدة ، تعيش وحيدة ، وتملك بيتا مكونا من أربعة أدوار ، عرفت بغرابة الأطوار وحدة الطبع • واكتظ رأس عبد العظيم بذكريات قديمة عما كان يدور فى بيته حول ثروة عمة أبيه ، وانصهر ذلك كله لحد الاحتراق فى خياله بنهم رجل لم يمارس طيلة حياته أى نوع من أنواع الامتلاك • رجل طال به الأمد فى الدرجة الخامسة ، وتقوس ظهره تحت أعباء الواجبات ، ولم يورثه أبوه الا عبئا ثقيلا هو أخته تفيدة • ودأبت الست نظيرة على زيارتهم حتى تجرأ يوما على أن يطلب منها قرضا صغيرا فانقطعت عن زيارتهم • عجوز وبخيلة ! • تمتلك بيتا من أربعة أدوار ايراده الشهرى لا يقل عن عشرة جنيهات • لكنها وحيدة رغم أنها تعيش فى بيئة أهلها القديمة • ومقيمة فى حجرة وحيدة فوق سطح بيتها بين الدجاج والغسيل • ولا علاقة طيبة بأحد تؤنس وحشتها اذ ضربت حول نفسها سياجا من سوء الظن والتوجس • وتساءل الرجل وهو يرتدى ملابسه : ترى هل جاء الفرج أخيرا ؟!

وقالت تفيدة وهما يسيران جنبا الى جنب فى شارع شين الكوم :

ـ ستترك ثروة من غير شك ••

ـ سيعرف كل شىء عما قليل ••

ـ والبيت أيضا ، ترى هل يسهل علينا تحصيل الايجار ؟ ، ان أهل الأحياء البلدية قوم متعبون !•

فابتسم عبد العظيم لعلمه بأنه من صميم هؤلاء القوم المتعبين ، وقال :

ـ أراك تتحدثين عنها كما لو كانت قد ماتت ••

فامتعضت تفيدة وتورد وجهها النحيل الشاحب العاطل من الجمال وغمغمت فيما يشبه الحياء :

ـ الأعمار بيد الله وحده ٠٠

ولما أخذا يشقان سبيلهما فى الدرب الأحمر طالعهما الحى القديم بوجه يغشاه البلى والذبول ٠ بدا مكتظا بالناس والحيوان والمركبات ٠ وذكرت تفيدة صباها بقوة مؤثرة ، ورجع عبد العظيم الى ملعب الطفولة فنطق كل شيء من حيوان وجماد بلغة القلب ٠ وبدا البيت طويلا على غير المألوف فى الحى كله ، وبرزت المشربيات كالأحلام ، وتناثرت أمام المدخل أكوام من الأتربة والحجارة على حين تمددت بجوار للجدار جثة قط على حال تعافها النفس ٠ ورقيا فى السلم ، وهو سلم عالى الدرجات ، حتى لهث عبد العظيم ، وعندما بلغ الدور الثالث قالت تفيدة :

ـ هنا ولدنا ، أنت وأنا ، وعلى هذه البسطة كانت تغنى الفلاحات « البحر زاد » فى موسم الفيضان ٠

ووجد عبد العظيم ذكرى أخرى فى الدرابزين الذى كان يتزحلق عليه فأوشك أن يحكيها لكن رغبته فى ذلك فترت فجأة فلم يخرج عن صمته ٠ ووقفا عند عتبة السطح حتى يستردا أنفاسهما المبهورة ٠ يا له من سطح غطى تماما بالأتربة وروث الدجاج وقطع الأحجار المتناثرة ، وامتدت فى فراغه فوق ارتفاع القامة حبال الغسيل ٠ وفى الناحية المطلة على الطريق قامت الحجرة الوحيدة ، متسلخة الطلاء ، باهتة الباب فطرقه ثم دفعه ودخل تتبعه أخته ٠ هاله منظر النسوة المتلاصقات من شدة الزحمة ، منهن الجالسات على كنبة ومقعدين قديمين ، والباقيات افترشن الأرض ، أما السرير ذو العمد السوداء والناموسية المربوطة من الوسط كالبالون فقد بدا بالراقدة عليه وحيدا منعزلا رغم الزحام ٠ ولم يظهر من نظيرة الا ثلثا وجهها الشاحب على حين أخفى الغطاء جسمها حتى الذقن ، والمنديل البنى رأسها وجبينها حتى الحاجبين ٠ والتقت الأبصار عند القادمين ٠ حدجتهما باستطلاع واهتمام ، وندت على رغم الحرص همسات ٠ وسرعان ما أخلى المقعدان ٠ واتجه

عبـــد العظيم وأخته نحو المقعدين وهو يرفع يده تحيــة ويتلقى في نفس الوقت عشرات التحيات ، وشعر بشىء من الاستعلاء لا يعد على أى حال شــيئا اذا قيس بما شعرت به أختــه · كان على علم تام بتأثير بذلته فى النسوة ، وكذلك معطف أخته الذى دفع آخــر قسط من ثمنه منذ أشهر قلائل · ولم يخفف من غلوائهما انتسابهما آخر الأمر الى هــذا الحى · غير أن ذلك كله لم يدم الا ثوان ، اذ ما كادا يستقران على المقعدين حتى تركز منهما البصر فى الراقدة فوق الفراش المنعزل · هذه هى العمة نظيرة · طالما عملت لهذا اليوم ألف حساب · وكان كلما خاطبها أحد فى شأن من شئون المال قالت بحدة : « سأموت قريبا وترثوننى » وثمة انحراف فى جانب الفم يثير الجزع · واستطالة فى الذقن المدبب مع هبوط ملحوظ فى اتجاه الفم الفارغ · أما العارض الذابل فما أشبهه بعارض أبيهما عند احتضاره · وعند ذاك تردد عن قلبيهما نفس كالرثاء مفعم بالشجن ، ومالت تفيدة نحو أقرب امرأة اليها وسألتها عما أصاب العمة فأجاب أكثر من صوت فى اختلاط وتسابق : « مسكينة كما ترينها ! » ، « ولكن ربنا قادر على كل شىء » ، « جئنا فوجدناها كما ترين » ، وهزت تفيدة رأسها كأنما ظفــرت بالجواب المطلوب ، يا لهؤلاء النسوة · ما أكثرهن · كأنهن يجلسن فى مسلك التنفس · ساكنات البيت أو من الجيران ولعل فيهن قريبات لهما · فى هــذا الحى أقارب لهما يسمعان عنهم ولا يعرفانهم ما عدا الحاج مصطفى الذى يزورهما فى بعض المواسم وهو قريب لأمهما لا لأبيهما · متى وكيف يمكن أن تخلو الحجرة من هذه القناطير من اللحم الآدمى ذى الرائحة المقلقة للأعصاب · وأجال عبد العظيم عينيه فى الحجرة التى لا يذكر متى رآها آخر مرة ولا كم كان عمره وقتها · الحق أنها حجرة واسعة ، فستقية اللون ، يتدلى من سقفها مصباح كبير آن له أن ينطفىء ، وتطل بنافذة على الطريق وبأخرى على السطح ،

وقد أغلقتا باحكام اتقاء للبرد القارص ، وغطيت ببســاط باهت منجرد انحسرت أطرافه عن حصيرة مفروشة تحته ، وثمة صوان قديم عكست مراته الوجوه الكالحة ، وصــندوق مزركش الغطـاء استكان تحت السرير ، وترابيزة حملت بموقد كحولى وكنجة قهوة ٠ لــكن أين ختم العمة ؟٠٠ وأين نقودها ؟ ٠٠ أين نقودها بصــفة خاصــة ؟ ٠٠ والا فمن أين له بنفقــات الدفن والمأتم ؟ ٠٠ وتطلع قليلا الى صــورة البسملة فى اطار فضى معلقة بالجدار المواجه للفراش ، ثم عاد يتساءل ترى أين توجد نقودها ؟ ٠٠ وشــعر بأن الحجرة رغم برودة الشتاء تفور بروائح المطبخ والعرق وصــنان الأطفال ٠ وانزعج انزعاجا خاصا لتطلع الأنظار اليه ، تكاد تمضغه مضغا ، ولم تكن تخلو من اكبار ولكنه كان يعلم من ناحية أخرى بأنه لا يملك حتى آخر الشــهر سوى النقود اللازمة للســجائر والمواصلات ٠

وتساءل :

ـ ألم يكشف عليها طبيب ؟

وقبل أن يتحرك لسان للاجابة فتح الباب وامتلأ فراغه بشخص جديد ٠ كان ربعة ، يرتدى معطفا غليظا فوق جلباب مقلم ، ملفوف العنق بكوفية مغطى الرأس بطربوش طويل ، وسرعان ما ارتطمت الأصوات وهى تحييه قائلة :

ـ أهلا بالحاج مصطفى ٠٠

رد الباب ودخل دون أن يرد تحية لكن ما ان وقع بصره على عبد العظيم وتفيدة حتى تهلل وجهه وأقبل عليهما مصافحا بحرارة وهو يقول :

ـ أهلا وسهلا ، قضى ربنا ألا يرى بعضنا البعض الا كل حين ومين ٠٠

ولمــا فرغ من المجاملات المعهودة تراجع الى حافة الفــراش



وجلس عليها بتؤدة وحرص خشية أن يصيب الراقدة بأى اهتزاز ، وآنس من وجه الأخ تطلعا الى معرفة كل شيء عن العمة نظيرة فأنشأ يقول :

ـ كان الله فى عونها ، لآخر لحظة حافظت على نشاطها اليومى المعهود ، وحتى هذا السلم المرتفع المخيف لم يكن ليحول بينها وبين الخروج كل يوم الى السوق ، وكم رجوتها أن تستعين على وحدتها بخادمة ولكنهـــا ‥ على أى حال أنت تعرف كل شيء عن هـــذا الموضوع ، واليوم خرجت للتسوق كالعادة ، قابلتها عند عم حسين البقال وتبادلنا الدعابات ، ثم عادت تسير على مهل ، ولما صعدت الى الدور الرابع وقفت تحادث ست حميـــدة (وأشار الى امرأة مكومة فى الركن) ثم مضت تصعد الدرجات الباقية ، ولـمـــا بلغت باب السطح ند عنها أنين موجع ، فهرعت اليها ست حميدة ‥

وقاطعته ست حميدة قائلة :

ـ لم أكن وحدى ! كانت معى أم نرجس ، وكانت ست خيرية فوق السطح تطعم الدجاج !

ابتسم الحاج مصطفى ابتسامة غامضة وقال :

ـ هرعن اليها ، لكنها أبت أن تستسلم ، أبت أن يسندها أحد ، حاولت بجهد أن تتم رحلتها وحدها ، وجعلت تقول « لا شيء ‥ لا شيء » ‥ وما لبثت أن ســـقطت بين أيديهن ! ، وحملنهـــا الى حجـــرتها وأنمنها على الفراش ، ثم أرسلن فى اســـتدعائى من القهوة . جئت مسرعا ، ولما اطلعت على الحال عدت الى الخارج ثم رجعت بصحبة طبيب حينا ، رجل طيب عجوز لا كأطباء هذه الأيام ، وكشف عليها باهتمام كبير ، استعمل السماعة وأجهزة أخرى ، ثم مال على قائلا : « النقطة » ‥ ووعد بالحضور مرة أخرى ، ولم يأخذ نظير هذا كله سوى خمسين قرشا !

جعلت تفيدة تفكر فى مقاطعة ســت حميدة وما ذكر الحاج من

أتعاب الطبيب · أما عبد العظيم فاستغرقه التفكير فى الحال التى سقطت بها العمة نظيرة · ما أشبهها بموت أبيه ، وموت جده من قبل ، ولعل حينه اذا ما حان أن يجىء على نفس الحال · يا لها من ميتة سريعة لا يدرى أحـــد عنها شيئا · وثبت عينيه على الوجه الشاحب ذى الفم المنحرف وتساءل : ترى هل تتألم الآن ؟ ، هل تود الاستغاثة فلا تستطيع ، أو أنها غائبة عن الوجود كله ؟ ·· وهى امرأة فى الثمانين ، كذلك مضى جده فى نفس السن ، أما أبوه فمات فى الستين دون زيادة ، وعلى ذلك فلا قاعدة هنالك يركن اليها ، والأمر لا يعدو أن يكون طيشا وعبثا · وتمتمت تفيدة :

ـ يمكن ربنا يأخذ بيدها ··

فرفع الحاج مصـــطفى حاجبيه الكثيفين بشكل غيـر عادى وقال :

ـ ربنا قادر على كل شىء ··

لكن نظرة عينيه أكدت ما ينقض قوله من أساســـه · ولاذوا بالصمت مليا · وكاد الصمت يستقر بالحجرة كلها لولا كلمات ندت من امرأة أو أخرى بقصد المجاملة والمداهنة ، وجميعها توجه نحو الراقدة ، مثل « الله يأخذ بيدها » و « كانت طيبة وأميرة » و « وجودها بيننا خير وبركة » ، فابتسم باطن عبد العظيم لسابق علمه بما بين عمته وبينهن من مشاحنات ونقار دائم ، وكان الحاج مصطفى أعلم بذلك غير أنه كان أجرأ من قريبه فتساءل فجأة بصوت مرتفع :

ـ اليوم الثالث من الشهر فهل حصلت ست نظيرة ايجار الشقق؟

وقلب عينيه فى الوجوه الواجمة حتى ارتفع صوت قائلا :

ـ أنا أعطيتها الأجرة والله شهيد !·

واذا بسيل من التوكيدات ينهمر · كل واحدة أكدت أنها دفعت الايجار مستشهدة بزميلة أخرى أو بمناسبة لم يشهدها أحد ، فقال عبد العظيم :

ـ طبعا ممكن الايصالات !

فقالت امرأة :

ـ نحن نتعامل معها بلا عقود ولا ايصالات ولكن ليس فى ذمتنا مليم واحد ..

وقالت أخرى :

ـ ومعلوم أيضا أنها لم تكن لتسكت عن متأخرة فى الدفع !

فقال الحاج مصطفى منذرا :

ـ سأدعو على الكاذبة :

فقال أكثر من صوت :

ـ ادع ، وبيننا وبينك ربنا ..

وكان الشـــك قويا ولكن لم يكن لدى أحد حيلة فرفع الحاج مصطفى يديه ناظرا الى فوق وقال :

ـ أنت أعلم بكل شىء ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم نظر اليهن قائلا :

ـ والآن تفضلن مشكورات حتى ندبر أمورنا ..

ومضت الجالسات يقمن ويغادرن الحجرة ، واحـــدة فى أثر اخـــرى ، حتى لم يبق الا امرأتان على الكنبة ، واحـــدة عجوز والأخرى شابة فى العشرين ، فابتسم الحاج مصطفى وقال مخاطبا عبد العظيم :

ـ أراهن على أنك لا تعـرف هاتين السيدتين ! ، على أى حال هما قريباتك ، الست بنت أخت نظيرة ، وهذه ابنتها .

تبودلت نظرات باسمة فى فتور ، وتوترت أعصاب عبد العظيم وتفيدة بقلق وعدم ارتياح ، واندفعت تفيدة قائلة :

ـ نريد أن نطمئن على أشياء عمتى !

فقال الحاج مصطفى :

ـ لا أحد يدرى عنها شيئا ، ولكن يحسن بنا أن نفتش المكان ..

وقام ـ والأعين تلاحقه ـ الى الصوان ففتحه ولكنه لم يجد به سوى بعض الفساتين البسيطة والثياب الداخلية • وعاد الى السرير فأخرج الصندوق من تحته وفتحه فوجد به أوانى نحاسية وموقد غاز وأطباق وعلبة سمن وزجاجة زيت وكيس ملح ، وسرعان ما أغلقه وأعاده الى موضعه •• ونظر الى تفيدة قائلا :

ـ يحسن بك يا ست تفيدة أن تفتشي صدرها ••

فجفلت تفيدة وهى تبادل أخاها نظرات الحــرج ولكن الحاج مصطفى قال :

ـ يا جماعة انها مصابة بنقطة ، يعنى الشلل ، ألا تعرفان ما يعنيه هذا وبخاصة فى مثل سنها ؟!

فقالت تفيدة باشفاق :

ـ الأعمار بيد الله ، وربما أفاقت وعلمت بما فعلنا ••

فقال الحاج مصطفى بعفوية عجيبة :

ـ أقطع ذراعى ان طلع عليها الصبح !••

ثم بلهجة المعتذر :

ـ يجب أن نتدبر أمرنا ••

وقامت تفيدة فى شيء من التردد فمضــت الى الفراش ، ثم أدخلت يدا مرتعشة الى صدر عمتها وأخرجت ما وجدته ، احجبة وعلبة سجائر ولفافة غليظة ، ثم أعادت الغطاء كما كان وعادت الى مقعدها • وتناول الحاج مصــطفى اللفافة وراح يفكها تحت الأعين المحملقة • وتمخض البحث عن كيس صغير وورقة مطوية ، بسطها الحاج بعناية واذا بالعجوز تصيح :

ـ دفتر توفير •• دفتر توفير وحياة ربنا فى سماه ••

فحدجتها تفيدة بغضب ، ومضى الحاج مصطفى يقر صفحات الدفتر حتى قال :

ـ مائة وخمسون جنيها فى البريد !••

فرددت العجوز :

ـ مائة وخمسون جنيها !٠٠ ربنا كريم ٠٠ ربنا كريم !٠٠

فحدجتها الأعين بنظرات ساخطة حتى أطبقت شفتيها ، غير أن شعور عبد العظيم بالارتياح كان أضعاف شعوره بالحنق على العجوز ٠ وتحول الحاج مصطفى الى الكيس الصغير فأفرغ ما فيه على الفراش فاذا فيه مبلغ سبعة قروش !٠ تبادلوا نظرات حائرة ، وهتفت تفيدة :

ـ سبعة قروش !٠ أين اذن ايجار البيت ؟!

فقالت العجوز :

ـ جئنا متأخرين للأسف ٠٠

وقال عبد العظيم :

ـ اما أن الايجار لم يدفع واما أنه سرق ٠٠

فهز الحاج مصطفى رأسه متأسفا وهو يقول :

ـ آه من النسوان ! ، حسبنا الله ، لا حيلة لنا ، وما فات فات !

فقالت تفيدة :

ـ ومن يدرى فلعلها كانت تملك أشياء أخر ٠

ـ لعلها ، كلام لا طائل تحته ، حسبكم العمارة ونقود البريد ٠٠

فقال عبد العظيم بقلق وبلهجة شفت عن مخاوفه :

ـ لكننا نحتاج الى نفقات عاجلة ٠٠

فقال الحاج مصطفى بصراحته المعهودة :

ـ نعم فللمأتم تكاليفه ، لكن ربنا موجود ، وأنا تحت أمركم !

فاطمأن عبد العظيم وأعرب عن شكره بابتسامة وغمغمة ٠ وهمت العجوز أن تتكلم لكن الباب فتح ودخل رجل قصير نحيل ذو نظارة سميكة ، وسن جاوزت الستين فقام الحاج مصطفى وهو يقول :

ـ أهلا بالدكتور !

واتجه الطبيب الى الفراش فوضع عليه حقيبته ، وراح يفحص الراقدة ، أزاح جفنها محملقا الى عينيها ، وجس النبض ، ثم أخرج من حقيبته السماعة وألصقها بالصدر فوق القلب ، ثم استمع الى دقاته ، ثم أعادها الى الحقيبة وأغلقها ، وبسط فوقها ورقة وكتب على عجل بعض الكلمات وهو يقول :

ـ هذه الحقن لازمة ..

وألقى نظرة على الموجودين قائلا :

ـ السلم متعب !

وابتسم ابتسامة لا معنى لها ثم حمل الحقيبة ومضى والحاج مصطفى فى أثره حتى غيبهما الباب . وما لبث الحاج أن رجع وهو يقول بلهجة ذات معنى :

ـ قال لى نشترى الحقن حقنة فحقنة لا دفعة واحدة !

ونظر فى عينى عبد العظيم فأدرك هذا أنهم قد لا يحتاجون الى الحقنة الثانية !..

ومد بصره الى الراقدة كأنما يلقى عليها نظرة الوداع . ومهما يكن من أمر فلا ينبغى لهذه الجلسة أن تطول فى هذا الجو البارد . يا لها من حجرة قامت فى خلاء يصفعها هواء الشتاء البارد فى كل جانب . وها هو الأصيل يغشى كل شىء ، وزفيف الريح يشتد فى الخارج ، والبرودة تسرى فى الأطراف . وما زال هذا الوجه الشاحب يذكره باحتضار أبيه فيثير أشجانه . وقرب هذه العجوز منه يؤلمه كأنه حجر مغروس فى جنبه . ومضى الوقت فى صمت ثقيل حتى فتح الباب وترامى صوت ينادى على الحاج مصطفى فهتف به هذا :

ـ ادخل يا عليش !

فدخل قزم يحمل لفة ضخمة أكبر من حجمه فتناولها الحاج ،
ثم وضعها على الفراش عند قدمى الراقدة ، وذهب القـــزم ورد
الباب وراءه بدون أن ينبس أو يلتفت الى أحد ٠

وتلاقت الأبصار عند اللفة فقال الحاج مصطفى بصوت انخفض
قليلا عن درجته المألوفة :

ـ لا مؤاخذة ٠٠ هذا هو الكفن ولوازمه ٠٠

وعكست الأعين جفولا كأنهم ينظرون الى ثعبـــان فهز الحاج
رأسه وقال :

ـ وحـــدوا الله ، ما نحن الا أموات أبناء أموات ، وأنا أعلم
من أول الأمر أن كل شيء سينتهى فى ســـاعات ، وغرضى الكرامة
والستر !

لم يعقب أحـد بكلمة فواصـــل الرجل حديثه بلهجة من يلقى
بتعليمات نهائية :

ـ رتبت كل شيء بروية ، والأعمـــال بالنيات ، فاذا قضى الله
قضـــاءه سأحضر المغسلة ، ثم نكفنها وندفنها ولو آخر النهار ،
أليس اكرام الميت دفنه ؟ وأنت يا عبد العظيم أفندى لا تحب وجع
الدماغ ولا الكلام الفارغ ، بعد ذلك نجىء بمقرىء فيقرأ سورتين
هنا فى حجرتها ، ثم فيما بعد نتحاسب ، والدار أمان ٠٠ وهـــذا
أكرم للمرحومة ٠٠!

وانتبه من توه الى أنها لم تصر بعد « مرحومة » فارتبك لحظة
واحدة ثم صحح نفسه قائلا :

ـ لا مؤاخذة أعنى ست نظيرة ، أستغفر الله العظيم ٠٠

ازداد عبد العظيم اطمئنانا بهذا الكلام ، فهو رجل لا خبرة له
تذكر فى هـــذه الشئون فضـــلا عن كسـله المكتسب من الروتين
الحكومى الذي غرق فيه زهرة عمره ، وتذكر فى ارتياح أن بعض
النقود المتوفرة فى البريد تفى بالنفقات جميعـــا حتى مع ادخال

المبالغات المرتقبة من ناحية الحاج مصطفى فى الحساب ! ، وهو رجل ـ الحاج ـ لن يضيره تأجيل الحساب حتى تتم اجراءات اثبات الوراثة المعقدة .. واستقر الصمت مليا فالتمسوا فيه شيئا من الاستجمام . واتجهت الأنظار صوب الراقدة ، كأنما تسألها عن متى يشرعون فى العمل بعد ان تم الاتفاق على كل شيء . واشتد الاحساس بالبرد فلذلك تقرفصت العجوز ابتغاء الدفء ، والتصقت بها ابنتها ، واذا بالعجوز تخرق الصمت قائلة كأنها تخاطب ابنتها :

ـ والله لك قسمة يا درية فى ميراث كبير على آخر الزمن ..

واشتعل انتباه عبد العظيم وأخته بعنف . وعكست عيناهما حنقا كالوهج على حين هز الحاج رأسه فيما يشبه الأسف . وتساءلت نفيدة بحدة :

ـ من أين عرفت هذا ؟

فقالت العجوز بعناد :

ـ هى خالة أمى وكل شيء فى الورق !

ولم تقنع العجوز بالكلام فقامت الى النافذة المطلة على الطريق ففتحتها غير مبالية بالهواء البارد الذى اندفع الى الداخل كالسياط ، ثم نادت بصوت مرتفع :

ـ يا شيخ عويس .. يا شيخ عويس ..

وفتحت نافذة البيت المواجه لهم عن وجه كهل متلفع بعباءة مغطى الرأس بطاقية صوفية . نظر اليها وهو يتساءل :

ـ مالك يا ست نفيسة !

فقالت وهى تحبك الملاءة حول جسدها النحيل خوفا من البرد :

ـ ربنا يكرمك ، لا تؤاخذنى ، لكنى فى حاجة الى رأيك ، اذا ماتت واحدة بلا ذرية ألا ترثها بنت بنت أختها ؟

فدهش الرجل وقال :

ـ وهل هذه المسائل مما يحل من النوافذ ، تعالى الى المكتب .. أو شرفى البيت ..

فقالت بتوسل :

ـ وحياتك وحياة أولادك الا ما أخبرتنى ..

فتساءل الرجل :

ـ هل الست نظيرة لا سمح الله ..؟!

وأشار بيده اشارة تعرب عن الانتهاء . لكنها قالت :

ـ كلا يا سيدنا الشيخ ، ولكنى أحب أن أعرف رأيك ..

فتراجع الرجل الى الداخل مقطبا وهو يقول :

ـ يا ست نفيسة لكل شيء وقته ..

ونهض الحاج مصـــطفى فأزاحها عن النافذة ثم أغلقها وهو يقول :

ـ عودى الى الكنبة ووحدى الله ..

وتمتم عبد العظيم وهو يكظم غيظه :

ـ البرد سيقتلنا والمريضة فى حالة خطيرة ..

وقالت تفيدة فى صوت متهدج :

ـ لم يعد فى الدنيا ذوق ..

فرجعت المرأة الى مجلسها وهى تقول بجفاء وتحد :

ـ حيلك يا ست هانم انها لا تعرف لها أهلا غيرنا ، أما أنتم فلم تحضروا الا عند الوفاة ! .

وشار الحاج الى تفيدة متوسلا أن تسكت وخاطب نفيســة قائلا :

ـ يا ست نفيسة ما معنى هذا كله ! ، هه ، ان كان لك حق فما من قوة تمنعه عنك ، أليس فى البلد محاكم وقوانين ؟ ، وعبد العظيم

أفندى رجل موظف محترم ، وكذلك الســت أخته فلا لزوم للكلام الفارغ ..

وهمت العجوز بالكلام ولكنه نهرها بحزم فأطبقت شــفتيها ، وسكت كل شيء فلم يعد يسمع الا عويل الريح فى الخارج ولغط بعض المارة فى الطريق ، وأنفاس الحاج مصطفى المحشرجة .

وشــعر عبد العظيم بهواء بارد يتسرب الى قدميه قادما من عقب الباب فانكمشت أصــابعه فى الحذاء ، وأخذ جو الحجــرة بمرور الوقت يشــحب ثم يغمق رويدا مؤذنا بالمغيب ، وركبهــم اليأس ، حتى الحاج مصطفى أشعل المصباح وهو يقول : « ما زال فى العمر بقية ، وحتى اذا وافى الأجل اليوم فلا بد من الانتظـار الى الغد » . وتساءل عبد العظيم : « هل قضى عليهم بالبقاء فى هذه الحجرة الكئيبة ، وعلى مقربة من هذه العجوز الوقحة طيلة ليل الشتاء البارد ؟ » ، ولم يعد مصطفى الى مجلسه ولكنه زرر معطفه استعدادا للذهاب ثم قال :

ـ لا لزوم لى الآن ، أنا ذاهب الى بيتى فاستدعونى اذا حصل شيء .

ومضى تاركا عبد العظيم لمزيد من الكآبة والضيق . نظر الى العمة بوجوم وكانت راقدة فى غير ما اكتراث لشيء فى الوجود ، أى شيء فى الوجود . واشــتد هبوب الريح حتى انقلبت زئيـرا وتجسدت الكآبة كالجدران القاتمة . وشــعر عبد العظيم بحنــان عارم الى مجلســه فى البيت على كثب من الراديو بين زوجه وأولاده ، الى صــخب الأولاد وشــقاوتهم وتعلقهم العجيب به ، وحملت الريح فيما حملت صوتا يغنى فى الراديو :

يا امه القمر ع الباب

فحاول أن ينسى فيه ألمه . ومر الوقت أثقل من الخوف . وجثم الليــل وأفصحت طقطقة الكنبة والمقعدين على تململ الجالسين .

وما لبث أن مال رأس العجوز الى مسند الكنبة وراحت تشخر شخيرا ضاعف من البلوى ، وتمتم عبد العظيم :

ـ كيف يمكن أن يمضى هذا الليل الطويل ؟

فقالت تفيدة بعطف :

ـ ارجع الى البيت ..

فقال بلهفة :

ـ تعالى معى ..

ـ هبها ماتت .. أثناء غيابنا ، فماذا يقول الناس ؟!

فأبى أن يذهب وحده ، وبدا أن المريضة هى الوحيدة التى ترقد فى سلام ، ومضى الليل بعدد ذرات رمال الدنيا ، واضطر الأخ وأخته الى الانتقال الى الكنبة التماسا لمجلس أطرى وتمهيدا لنعاس متقطع متعب على مرمى أنفاس الموت المترددة . ولم يجد الرجل ما يتسلى به سوى التفكير فى الميراث المنتظر ، فى نصيبه من مال البريد ، ومن ايراد البيت الشهرى الذى لا يقل عن عشرة جنيهات ، ألا يضمن على الأقل مقدار علاوتين شهريتين ؟ ، لعله يتمكن من شراء معطف فما يجوز أن يلقى الشتاء كل عام بلا معطف فى مثل هذه السن ، ولعله يستطيع أن يرفه عن أسرته بشىء من الفاكهة الممتازة من حين لآخر ، أو بنوع من الطيور ولو مرة فى الشهر ، لا شك أن الحياة ستكون أجمل مما كانت حتى الآن . وغلبه النوم وهو يناجى أحلامه . واستيقظ هو وأخته فى الصباح الباكر بجسدين متوعكين فى أكثر من موضع . واقتربت تفيدة من فراش العمة وانحنت فوقها متفحصة ثم عادت الى أخيها وهى تقول :

ـ ينبغى أن نذهب الى البيت ولو لبضع ساعات ..

فقالت ست نفيسة التى ظناها نائمة :

ـ تذهبان وترجعان بالسلامة ..

فتلقت مجاملة العجوز كأنها بودرة عفريت رشت فى قفاها ، وذهبا معا واجمين . وفى الطريق قال عبد العظيم لأخته :

ـ لى صديق محام سيحل لى ألغاز الميراث فى أقرب وقت ..

وعاد قبيل الظهر بقليل ، وأرهفا السمع وهما يقتربان من البيت ولكنهما لم يسمعا شيئا مما كانا يتوقعان . كل شيء هادىء فى البيت . والدجاج يتمشى فوق السطح فى غبطة ظاهرة ويميل برأسه الى الوراء لينظر الى القادمين . ووجدوا فى الحجرة العجوز وابنتها والحاج مصطفى والفراش المنعزل الصامت حاملا العمة المصابة وكفنها المكوم عند القدمين . سلما ثم اتخذا مجلسيهما على المقعدين كالامس وهما يكابدان احساسا بالخيبة وخوفا من أن يتكرر عذاب الليلة الماضية . وخيل اليهما أن الحاج مصطفى هم بالكلام لكنه عدل عنه . ماذا كان يريد أن يقول ؟ لعله يشعر بما يشعر به أى سمسار انكشف خداعه ! . والحق أن الحياة لا يمكن أن تحتمل على هذا النحو الأليم من الانتظار فوق مقعد خشبى على كثب من كفن . وكم من مشلول عاش دهرا طويلا ! . وربما وجبت عليهم خدمة المريض زمنا ، لا يدرى مداه أحد . وقال الحاج مصطفى بلهجة ذات معنى :

ـ نحن نشترى الحقن حقنة بعد حقنة !

ألا خيبة الله ! . أنت وطبيبك نفسه ! ولم يعلق عبد العظيم لا بكلمة ولا بنظرة . وراح الحاج يقص القصص عن الشلل والمشلولين . جدكما مثلا مات بمجرد اصابته . أبوكما لم يلبث الا ساعات . وصاحب العمارة فى أول الطريق سقط فى القهوة ولفظ أنفاسه قبل أن يجد من ينقله الى البيت . وعشرات غيرهم أى نعم عشرات . وما لبث ن قام قائلا :

ـ استدعونى اذا جد جديد ..

وغادر الحجرة ، وعقب ذهابه مباشرة أقبلت مجموعة من

الجارات فاستحسن عبد العظيم أن يذهب أيضا • مضى الى قهوة بالأزهر ، ثم تناول غداءه عند العاجاتى وعاد الى الحجرة فوجد الحال كما تركه • ولبث دقائق ثم مضى مرة أخرى الى القهوة فبقى بها حتى المساء فعاد الى الحجرة بأمل جديد ولكنه وجد الحال كما تركه • وقالت له تفيدة بحزم :

ـ لن تستطيع المبيت هنا ليلة أخرى ، ارجع الى البيت وسأبقى أنا ••

غمغم بشىء لم يتبينه أحد ثم ذهب • رجع الى أسرته ، واطمأن فى مجلسه أمام الراديو بين الأولاد ، وتأرجح قلبه بين الطرب وبين عواطف الأبوة الأصيلة العميقة التى يلهمها كل ولد بطريقته الخاصة • وعمقت تجربة الليلة الماضية من مسرته بالمجلس كأنما هو عائد اليه من مرض أو سجن • وسألته زوجته :

ـ أليس من الواجب أن أذهب معك غدا ؟

فقال بجد :

ـ لا داعى لذهابك مطلقا !

ومضى مع الصباح الى الدرب الأحمر ، وكان كل شىء كما توقع ، يجرى على مألوفه ، وضحك الحاج مصطفى ضحكة فاترة وقال وهو يشير الى العمة :

ـ كعادتها دائما ، ربنا يلطف بها ، كانت رغم كل شىء ظريفة !

ثم قص عليهم كيف أنها رغبت أخيرا فى اجراء بعض الاصلاحات فى دورة المياه فكلفته بالقيام باللازم ، وكيف واظبت على مراجعة حسابه قبل الاذن بالشروع فى العمل الذى لم يتم ، وكيف لم تخف سوء ظنها بكل رقم ، ثم كيف قالت بكل بساطة : « يا مصطفى ، انت كلك ضلال كالمرحومة أمك » • وضحك الرجل ضحكة عالية لكنه اضطر الى قطعها على صوت تفيدة وهى تهتف :

ـ انظروا ٠٠

اتجهت الأنظار نحو العمة فرأوا الغطـاء وكأنه يتحرك ، يقب قليلا فوق يدها اليسرى ٠ اقترب الحاج مصطفى من الفراش وأزاح الغطاء قليلا فبدت يسراها وهى تتحرك ٠ ارتفعت قليلا ، وانبسطت راحتها ثم انقبضت ، ثم استكنت فوق الصدر ، حملق الرجل فى الراقدة بذهـول ، ثم أعاد الغطاء الى سـابق وضعه وعاد الى مجلسه ٠ وتوتر الصمت كالشلل ٠ ترى أى قوة خفية تعبث بهم وتعذبهم ؟! ٠ ألم تكن الحياة محتملة رغم كافة متاعبها ؟ ٠٠ ماذا رمى بهما الى هذه التجربة ؟٠ وقالت تفيدة بحدة :

ـ ضعوا الكفن تحت السرير ٠٠

فرفع الحاج حاجبيه الكثيفين فى حيرة ولم ينبس ولم يتحرك ، فعادت تفيدة تقول :

ـ رأسى سيتكسر من قلة النوم ٠

فنظر عبد العظيم نحو الحاج وقال :

ـ لنذهب الآن ثم نعود عصرا ٠٠

وشجعهما الحاج بهزة من رأسه فغادرا الحجرة على الفور ، وقالت تفيدة وهما يقطعان الغورية :

ـ هذا حرام من أوله الى آخره ، والله يعاقبنا ٠٠

قال عبد العظيم بعصبية :

ـ ماذا فعلنا ؟٠٠ البغل وحده الذى أكد أول يوم أنها ستدفن قبل هبوط الليل ٠٠

ـ الحق أنى كرهت كل شىء ، كرهت نفسى يا أخى ٠٠

ـ لا اعتراض على مشيئة الله ٠٠

ثم بلهجة متطورة الى الهـدوء وكانا يقتربان من شـارع الازهر :

ـ اذهبى الى البيت وسأذهب الى المصلحة ٠٠

وقفا فى المحطة ينتظران الترام · وحانت من عبد المنعم نظرة نحو مدخل الغورية فرأى الحاج مصطفى يهرول نحوهما · وقف أمامهما وهو يلهث ثم قال :

ـ الحمد لله على أن أدركتك قبل أن تركب ··

ثم مواصلا كلامه بعد لحظات استراحة :

ـ البقية فى حياتك ··

ألجمت الدهشة لسانيهما ، وتدفق الى نفسيهما خليط من المشاعر ، الخوف والحزن والارتياح والخجل · ورجعوا جميعا ، وتفيدة تتسائل :

ـ ظننت أنها ·· رباه ·· كيف حدث هذا ؟

فقال الحاج مصطفى وكان لا يزال يلهث :

ـ كما يحدث عادة ، لا غريب فى الأمر ، سعلت قليلا ، وبدا أنها تحاول أن تتكلم ، ثم شهقت شهقت خفيفة ، وخرج السر الالهى ··

وترامى اليهم من ناحية البيت صوات جماعى !·· وقع فى نفوسهم موقعا غريبا ولكنه أحدث تأثيرا غير منتظر فجاش صدر عبد العظيم بالانفعال وأجهشت تفيدة فى البكاء · وعندما اقتربت من السطح ولولت صائحة : « يا عينى يا عمتى ·· يا عينى يا عمتى ! » ·

وجرى كل شىء كما رتب الحاج مصطفى من قبل فخرجت الجنازة قبل الظهر ، وسار فيها جمع غفير من أهل الحى سواء للمجاملة أم ابتغاء الثواب · وتراءى الشيخ عويس المحامى وهو يسير بين المشيعين فشق الحاج مصطفى سبيله اليه ولزمه حتى صلى على الفقيدة فى الجامع · ولما استأنفت الجنازة سيرها الى باب النصر بالبقية القليلة من المشيعين عاد الحاج الى جانب عبد العظيم شلبى ولكزه بكوعه قائلا فى همس :

ــ لن يشارككما أحد ٠٠

فسأله عبد العظيم بلهفة :

ــ أقال ذلك ؟

ــ تقريبا ، المسألة تحتاج الى مراجعة طبعا ولكن اطمئن !

فدارى عبد العظيم فرحته بقناع من الجد وتمتم :

ــ نحن راضون بما قسم الله به ٠٠

وانتهت الجنازة الى المدفن القديم ، فأنزل النعش على كثب من القبر وجلس المشيعون فى الحوش غير المسقوف على كراسى من الخيزران ٠ ومضى عبد العظيم الى القبر المفتوح ووقف عند رأسه مذعنا لرغبة غامضة أقوى من الخوف الذى لم يصده ، كان القبر ذا منامتين ، واحدة للرجال والأخرى للنساء فأرسل طرفه الحائر نحو منامة الرجال ٠ رآهم صفا متراميا الى الداخل ، على رأسهم أبوه الذى استدل عليه بموضعه وبلون كفنه الكمونى المقلم ، تلاه أخوه ، ثم جده ٠ وثقل قلبه جدا ، وضغط الانقباض على أضلعه ضغطا غير محتمل ٠ لكن عينيه تحجرتا فلم تذرفا دمعة واحدة ٠ وامتلأت خياشيمه برائحة ترابية نافذة كأنما تصدر عن الفناء نفسه ٠ ومرت لحظة مات فيها كل شىء فلم يعد لأمر قيمة ولا معنى ٠ وشعر بيد توضع على كتفه فالتفت فرأى الحاج وهو يشير اليه أن يتخلى عن مكانه للدافنين ، وسرعان ما تراجع ٠ وبدأ الغمل فحمل الجثمان ليودع مقره الأخير ٠ وانبعثت آيات من صوت كئيب كأنما تنبعث من خزانة للأحزان ٠ وبدأ التلقين فى رتابة مخوفة مضجرة ، ألقته حناجر أشباح شائهة ، فحلت به جملة ألغاز الابد ٠ وقال عبد العظيم لنفسه : يا لها من أسئلة ولكن كيف يتاح الجواب لمنفرد بظلمة القبر ! ٠٠ وتتابعت الأصوات فى رتابتها تنفث كآبة كالغبار ، وفى الحوش تردد صوت السقاء البائس وهو يجول بين الجالسين بابريقه دون أمل ٠ وطار فكر عبد العظيم فجأة الى ابنه

البكرى فعاهد الله على أن يجرى له جراحة لاستئصـــال اللوزتين كما نصح بذلك طبيب الوحدة المدرسـية ، فهذا خير على أى حال من أن يتهدده روماتيزم القلب فيما بعد ، وعاهد ربه أيضـــا على الاقلاع ما أمكن عن المواد الدهنية كما أشار عليه الطبيب منذ عام بغض النظر عن الثروة المنتظرة • وتلاحقت الأصـــوات فى سرعة موحية بنهاية الحفل فحن قلبه الى البيت والأولاد بقوة وجـد فيها العزاء عما ساوره من قلق • وتابع الحاج مصطفى وهو يســاوم الترابى وينفح السقاء بشىء من الجود ، وكذلك المقرئين ، وارتفع صوته الجهير وهو يزجر الطامعين بغلظة • وآمن بأن ذلك الرجل ســيخرج من المولد بغنيمة طيبة ولكنه كان مقتنعا كذلك بأنه لولا خدماته لغرق فى الارتباك والخسران حتى أذنيه ، ومضى المشيعون ينصرفون حتى لم يبق الا الحاج مصـــطفى وعبد العظيم ، وكانت الشمس تسطع فى سماء خلت تقريبا من السحب فبثت فى الجـو دفئا مليحا فدعا الحاج مصطفى صـــاحبه الى الجلوس على دكة عند طرف المدفن ليستريحا قليلا • وتردد عبد العظيم عن قبـــول الدعوة مقلبا عينيه فى الخلاء المكتظ بالقبور الى ما لا نهاية أمام الدكة وفيما حولها ولكن الحاج تعلق بذراعه وقال متوسلا :

ــ لم أجلس منذ الصـــباح ولا ثانيـــة ، دقائق معدودات ثم تذهب ••

وجلس الحاج فجلس عبـد العظيم وهو كاره ، بدا كأنه بعجب من كثرة القبور حوله فأراد الآخر أن ينتزعه من كآبة المنظر فقال :

ــ غلبنى التعب المتراكم ، وأمامنا مشـــوار ليس بالقصير ، وأنت رجل ظريف تستحب معاشرته ، بالله خبـرنى ماذا نويت أن تفعل •

فتساءل عبد العظيم بدوره :

ــ فيم ؟

فلوح الآخر كأنما يشير الى القبور وقال .

ـ فى كل شىء ، أعنى الأمور الجديدة التى تتطلب أسرع الحلول . طبعا عليك أن تشرع فورا فى اجراءات اثبات الوراثة • وقبل ذلك علينا أن نستشير المحامى بصفة رسمية ، بعد ذلك تصبح أنت والست أختك المالكين ـ وحدكما ان شـــاء الله ـ للبيت ونقود البريد ••

فهز عبد العظيم رأســـه بالايجاب ولكنه حسب للمجهود ألف حساب • وقرب الآخر فمه من أذنه كأنما يخشى أن يسمعه من فى القبور وقال :

ـ الحق أن المتاعب ستبدأ بعد ذلك ••

ـ المتاعب قبل ذلك ••

ـ أتظن هذا ؟!، ماذا تعرف عن مهمة أصحاب البيوت ؟

فقال عبد العظيم بقلق :

ـ لا أدرى ، هل ثمة شىء خلاف تحصيل الايجار فى أول الشهر ؟

ـ وكيف يحصل الايجار فى أول الشهر ؟

فابتسم عبد العظيم فى حيرة دون أن ينبس ، فقال الحاج :

ـ واحد يدفع وعشرة يتهربون ، هذا يجب أن تمهله أسبوعا . وذلك وقعت له مصيبة وبطلب التأجيل الى الشهر القادم ، وثالث لن تجده فى مسكنه أبدا ، ورابع وخامس ، أنت لا تعرف أهـــل حينا ولا سكان هذا البيت بصفة خاصة ، الله يرحم عمتك . كانت مجاهدة عظيمة . ولكن أنت ، الموظف المحترم ، المؤدب المهذب ، ماذا تستطيع أن تفعل ؟

فقال عبد العظيم وهو يشـــعر بأن جدارا يرتفع أمامه ليخفى عن عينيه أحلامه العسلية :

ـ فى البلد قانون •

ـ اذن فلتلزم نقطة البوليس ولتسكن فى مكتب محام ••

ـ الدنيا ما تزال بخير ••

فقال الآخر بتوكيد :

ـ البيت كالعروس الجـــديدة ، مرة ترجع اليك لأن زوجها ضربها ، ومرة لأن حماتها شتمتها ،ومرة لأن المصروف غير كاف ، صـــدقنى أن هذا هو حال البيت ، الحنفيات خربت ، دورة الميــاه انسدت ، السلم تشقق ، وهذا هو وجع الدماغ الأصلى .

تجهم وجه عبد العظيم وشعر بضيق شديد ، ورمق صـــاحبه بنظرة استياء ثم سأله :

ـ ماذا تقصد ؟

فقال الحاج بصراحة مذهلة :

ـ بعه !

فقطب عبد العظيم مستنكرا ولكن الآخر قال :

ـ أنا رجل صريح ، لا أخفى عنك أن البيع مفيد لى ، كل بيع أو شراء فى حينا مفيد لى ، ولكن هذه الصفقة مفيدة أكثر لك أنت ، هـــذا هو المهم ، أنا لا أكذب عليك فأقول انى أراعى مصلحتــك ، الحق انى أجرى وراء مصلحتى ، ولكنها فى هذه الحال مصلحتك أيضا ، ســتأخذ ألفا أو ألفا وخمسمائة ، ان شـــاء الله ألفين ، وستستغلهما استغلالا أحسن وبعيدا عن وجع الدماغ ..

فكر عبد العظيم فى الأمر باهتمام جدى ، لكنه تمتم متظاهــرا بالجزع :

ـ يا لها من خسارة !

ـ أبدا وحياتك ! ، سيكون المبلغ بين يديك ، بما فيه نصيب أختك ، لن تجد معارضة من ناحيتها أبدا ، فيمكن أن تستغله باسمك وباسمها ، وهى وحيدة ، لا أحد لها فى الدنيا سواك ، وسيؤول كل المال اليك والى أولادك من بعدك !

فقال عبد العظيم :

ـ سيكون حقها كله تحت تصرفها ..

ـ طبعا ٠٠ طبعا ، أنت لا تفهمنى يا سى عبد العظيم !

وأخفى عبد العظيم عينيه عن صاحبه وعن القبور بالنظـــر الى الارض ٠ مبلغ كبيـــر بلا شك ٠ وطالمـــا أكرم تفيدة فهى لن تعارضـــه ولن تحاسبه ٠ وأولاده ما هم الا أولادها ٠ وثمة وجوه كثيرة للاســـتغلال بلا شــك ٠ الحق أن الفكرة طيبة ٠ وغمغم فى حذر :

ـ سأفكر فى الأمر ٠٠

فقال الحاج مصطفى بارتياح :

ـ فكر على مهلك ، واذا قررت البيع فأحضر بنفسك أى سمسار كما تشاء حتى تقبل عن رضى الثمن المعروض ولك على بعد ذلك أن أجد لها شاريا بنفس الثمن ، والأقربون أولى بالمعروف !

الفكرة وجيهة ، وســـوف يشاور أصدقاءه ٠ والبيع على أى حال خير من مناكفة المستأجرين ، ورعاية بيت قديم من عهد نوح ، وقال :

ـ اتفقنا يا حاج من ناحية المبدأ ٠٠

فلوح الحاج مصـــطفى بذراعه كأنما يقول « اتفقنا » فانطلقت ذراعه فى الهواء كشـــاهد من آلاف الشواهد القائمة حوله فوق القبور ، ورأى عبد العظيم ذلك المنظر فانقبض صـــدره ٠٠ وقام وهو يقول برجاء :

ـ آن لنا أن نذهب ٠

الجامع في الدرب

حان موعد درس العصر ولكن لم يوجد بالجامع الا مستمع واحد • ولم يكن هذا بالأمر الجديد على الشيخ عبد ربه الامام . فمنذ التحاقه بخدمة الجامع وهو لا يجد مستمعا لدرسه الا عم حسنين بياع عصير القصب ، ولذلك دأب المؤذن والخادم على الانضمام الى الرجل احتراما للدرس ومجاملة للامام • وحق للشيخ عبد ربه أن يستاء لذلك ، لكنه كان اعتاده مع الزمن ، ولعله كان يتوقع ما هو أفظع يوم تقرر نقله الى هذا الجامع الرابض على باب الفساد ، يومذاك غضب ، وسعى الى الغاء النقل أو تعديله ، ولكنه اضطر الى تنفيذه على رغمه ، ولاقى بسبب ذلك ما لاقى من تهكم الخصوم ، ومزاح الأصدقاء • أين يمكن أن يجد مستمعا لدرسه ؟! • الجامع يقوم عند ملتقى دربين ، درب الفساد الشهير ، ودرب آخر بمثابة مباءة للقوادين والبرمجية وموزعى المخدرات ، ويبدو أنه لا يوجد رجل صالح أو حتى رجل عادى فى الحى كله الا عم حسنين بياع العصير • ولبث دهرا يفزع كلما امتد بصره الى داخل هذا الدرب أو ذاك ، وكأنما كان يخشى اذا تنفس أن تتسرب الى صدره جراثيم الدعارة والجريمة • على ذلك كله واظب على القاء درسه مواظبة عم حسنين على الحضور ، حتى قال للرجل يوما بلهجة التشجيع :

ـ بهذا الاجتهاد ستصير عما قريب اماما يرجع اليه !

فابتسم العجوز فى حياء وقال :

ـ علم الله لا حدود له ••

وكان درس اليوم عن نقاء السريرة بصفته عماد الاخلاص وأس المعاملة الشريفة بين المرء ونفسه وبينه وبين الناس الى أنه خير

ما يستقبل به الانسان يومه ، وأصغى عم حسنين بانتباه كعادته ، وكان قليل للسؤال الا أن يكون ذلك عن معنى آية أو استيضاح لشأن من شئون الفرائض • وفى ذلك الوقت من اليوم ــ العصر ــ يستهل الدرب حياته ، كان الدرب يرى بكامله من نافذة الجامع القبلية ، ضيقاً متعرجا فى بعض أجزائه طويلا تقوم على جانبيه أبواب البيوت البالية والمقاهي ، ولمنظره وقع غريب مثير للغرائز • فى العصر تدب فى الدرب حركة استعداد كأنه يتمطى مستيقظا من سبات • الأرض ترش بالجرادل • الأبواب تفتح وتطرق طرقات غريبة ، المقاعد تنتظم فى القهوات • نسوة فى النوافذ يتزين ويتبادلن الأحاديث • ضحكات متهتكة تلعلع فى الجو • البخور يحترق فى الدهاليز • ولم يخل الأمر من امرأة تبكى فتحدثها المعلمة على التعزى كيلا يضيع الرزق كما ضاع الفقيد • وأخرى تضحك ضحكة هستيرية لأنها لم تنس بعد مصرع زميلتها وهى قاعدة الى جانبها • وقال صوت غليظ مستنكرا :

ــ حتى الخواجات ! ، حتى الخواجات يا هوه ! ، خواجا يضحك على فردوس ! ، يبتز منها مائة جنيه ويهجرها ! •

وثمة أصوات تتمرن على أداء أغنيات مبتذلة فاحشة ، وفى نهاية الدرب بدأت معركة بالكلام وانتهت بالكراسى ، ثم خرجت لبلبة لتجلس أمام باب أول بيت ، وأشعل أول فانوس ، وشعر كل بأن الدرب عما قليل سيستقبل الحياة ••

وذات يوم دعى الشيخ عبد ربه باشارة تليفونية الى مقابلة المراقب العام للشئون الدينية • وقيل له انها دعوة عامة للأئمة ، ولم يكن ذلك بالأمر غير المألوف وخاصة للظروف التى سبقت الدعوة • ومع ذلك تساءل الرجل عما وراء الدعوة بشىء من القلق ، كيف لا والمراقب شخصية خطيرة ، تستمد خطورتها من قرابة لموظف كبير ملعون الاسم على كل لسان ، موظف يجىء بالوزراء

ويذهب بهم ، ويعبث بكافة المقدسات الشعبية • سيكونون بين يديه خير ممثلين للضياع وستذروهم رياح الغضب لأقل هفوة • وبسمل الشيخ ، وتأهب للاجتماع بخير ما لديه ، فارتدى جبة سوداء وقفطانا شبه جديد وقلوظ العمامة ثم ذهب متوكلا على الله • وجد الطرقة أمام مكتب المراقب شديدة الزحام كأنها على حد تعبيره يوم الحشر • وجعل الأئمة يتبادلون الخواطر ويتساءلون عما وراء الاجتماع من أمور • ففتح الباب الكبير وأذن لهم بالدخول فدخلوا تباعا الى الحجرة الواسعة حتى اكتظت بهم • واستقبلهم المراقب بوجه وقور يشع رهبة ، استمع كالكاره الى مقطوعات المديح التى انهالت عليه وهو يدارى ابتسامة غامضة ، ثم ساد الصمت واشتد التطلع على حين أخذ هو يقلب عينيه فى الوجوه ، وحياهم تحية مقتضبة • وأعلن ثقته فى أنهم سيكونون عند حسن الظن بهم • وأشار الى الصورة المعلقة فوق رأسه وقال :

ـ واجبنا نحوه ونحو أسرته العلية هو ما دعا الى هذا الاجتماع ••

انقبضت صدور كثيرة دون أن يزايل البشر وجوه أصحابها • وقال المراقب :

ـ ان العلاقة الوطيدة التى تربطكم به فوق الكلام ، انها مودة تاريخية متبادلة ••

أشرقت الوجوه بالتأييد لتدارى توعك القلوب ، وواصل الرجل الحديث قائلا :

ـ وحيال الأزمة التى تجتاح البلاد يطالبكم الاخلاص بالعمل ••

اشتد اضطراب القلوب فى مسرحها الخفى :

ـ بصروا الشعب بالحقائق ! ، اهتكوا أستار الدجالين ومثيرى الشغب ، كى يستقر الأمر لصاحب الأمر ••

وصال المراقب وجال مستنفدا هذه المعانى ، ثم تساءل وهو يتفحص الوجوه ان كان ثمة ملاحظات يراد أن تقال ! • غشى المكان الصمت حتى انبرى امام جرىء فأكد أن المراقب أفصح عن مكنون القلوب وأنه لولا الخوف من خرق التعليمات لسارعوا من أنفسهم الى ما دعاهم اليه من واجب ! وانجاب القلق عن الشيخ عبد ربه مذ بدأ المراقب حديثه • أدرك لتوه انهم لم يدعوا لأى نوع من المحاسبة أو للتحقيق ، بل ان السلطة تسعى اليهم هذه المرة باسطة يدها ، ومن يدرى فلعله يعقب ذلك اجراء جدى لتحسين حالهم فيما يتعلق بالمرتبات والمعاشات • غير انه سرعان ما ارتد الى القلق كما ترتد الموجة المنبسطة على الساحل الرملى الصافى الى الزبد • أدرك بوضوح ما يراد بهم وما سوف يجد نفسه مضطرا الى قوله فى خطبة الجمعة مما يأباه ضميره ويمقته الناس • ولم يشك فى أن الكثير يشاركونه مشاعره ويعانون أزمته ، ولكن السبيل فيما يبدو مسدود فى وجوه الجميع • وعاد الى الجامع وهو يعمل فكره فى همومه الجديدة • .

***

وكان شلضم البرمجى المعروف بالحى مجتمعا بأعوانه فى خمارة « أهلا وسهلا » على مبعدة أمتار من الجامع • بدا غاضبا كالنار وكلما شرب قدحا من النبيذ الأسود ازدادت النار اشتعالا • وقال بصوت كالخوار :

ــ البنت نبوية المجنونة تحب الولد الرقيع حسان ، لا شك عندى فى ذلك ••

فقال له صاحب يبغى تهدئته :

ــ لعله زبون ، مجرد زبون لا أكثر ولا أقل ••

قدق شلضم الترابيزة بقبضة من حديد تناثر لها الترمس والفول السودانى وقال بوحشية :

ـ لا ٠٠ انه يأخذ ولا يعطى ٠ أعرف ذلك كما أعرف أن طعنة خنجرى قاتلة ، وهو لا يدفع مليما واحدا بينما يتلقى الهدايا أشكالا وأنواعا !

فأعلنت الوجوه التقزز والازدراء ، وأفصحت الأعين المخمورة عن التأهب والامتثال فقال :

ـ الرقيع يجيء عادة حينما ترقص الافعى ، انتظروا مجيئه ، ثم اشتبكوا فى معركة ، وعلى الباقى ٠٠

وجرعوا الأقداح وأعينهم تعكس شر النوايا ٠٠

***

وعقب صلاة العشاء زار الشـــيخ عبد ربه اماماان من زملاء الدراسة يدعى أحدهما خالد والآخر مبارك ٠ جلســـا الى جانبه متجهمين ، وأخبـــراه بأن بعض الأئمة قد فصـــلوا من وظائفهم لامتناعهم عن الاشتراك فى الحملة المدبرة ، وقال خالد متذمرا :

ـ لم تخلق دور العبادة للمهاترات السياسية وتأييد الطغاة !

فشعر عبد ربه بأن حديث صاحبه ينكأ جرحه وتساءل :

ـ أتريد أن تتضور جوعا ؟

فساد صمت ثقيل ، وأبى الشيخ أن يعلن هزيمته فتظاهر بأنه سيعمل عن اقتناع ليحافظ على كرامته أمامهما فقال :

ـ ما يظنه البعض مهاترات قد يكون هو الحق بعينه ٠٠

ودهش خالد لانقلاب الشيخ فزهد فى المناقشـــة ، أما مبارك فقال باندفاع مأثور عنه :

ـ ســـنقتل مبدأ اســـلاميا هو الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ٠٠

فغضب عبد ربه عليه كما يغضب ضميره الذى يعذبه وقال :

ـ بل سنحيى مبدأ اسلاميا هو الدعوة الى طاعة الله ورسوله وأولى الأمر ٠٠



فتساءل مبارك فى استنكار شديد :

ـ أهؤلاء من تعدهم أولى الأمر ؟!

فتحداه عبد ربه متسائلا :

ـ خبرنى هل تمتنع عن القاء الخطبة ؟

قام مبارك متسخطا ثم غادر المكان وما لبث أن غادره خالد ولعنهما الشيخ كما يلعن نفسه الثائرة ..

***

وقبيل منتصف الليل امتلأ حوش البيت الســـابع الى اليمين بالسكارى . جلســـوا على مقاعد خشـــبية متحلقين دائرة من الأرض الرملية ســـلط عليها ضوء كلوب ، وانســـابت فى جنباتها نبرية وهى ترقص فى قميص نوم وردى . وتلعب فى يمنـاها نبوتا مكتســـيا بخيط حلزونى مرصـــع بالورد . وصفقت الأكف على الواحدة . وتصاعدت من الأفواه المخمورة تأوهات بهيمية . واندس البرمجية فى الأركان يتربصون على حين لبد شلضم فى بئر السلم مركز العينين على مدخـــل البيت ، واذا بحســـان يدخل مصفف الشعر متألق الثغر ، فالتهمته نظرات شلضم النارية . وقف حسان ينظر الى نبوية حتى انتبهت اليه فحيته بابتسامة عريضة وحركة لعوب من بطنها الراقص وغمزة عين .

عند ذاك تسلطن حسان فمضى الى مقعد خال وجلس . وغلى الدم فى عروق شلضم حتى تقلصت أطرافه ثم أطلق صفيرا خفيفا ، وفى الحال اشتبك اثنان من أعوانه فى معركة مفتعلة . وتداخـل الآخرون فاشـــتدت المعركة وترامت حتى قام السكارى مذهوليـن وأخذوا يتدافعون نحو الباب . وطار مقعد نحو الفانوس فهشمه فانقض الظـــلام على المكان كالكابوس ، واختلط الصراخ بوقـع الأقدام وارتفع الصوت وفى غمار الزوبعة الدائرة فى الظلمة شـق

الضجيج صراخ امرأة وما لبثت أن أعقبها على الأثر تأوهات رجل من الأعماق • وسرعان ما خلا الحوش الراكد تحت مثار الغبار الا من جثتين مطروحتين فى الظلمة الصامتة •

وكان اليوم التالى هو الجمعة • ولما حان وقت الصلاة ازدحم الجامع بالمصلين على غير المألوف كل يوم ، اذ أن صلاة الجمعة تجذب اليه أناسا من الأطراف البعيدة كالخلزندار والعتبة ، وتلى القرآن ثم وقف الشيخ عبد ربه لالقاء الخطبة • ويبدا أن المصلين فوجئوا بالخطبة السياسية مفاجأة لم تخطر على بال • تلقت آذانهم متململة الجمل المسجوعة عن الطاعة وواجب الولاء بارتياب وحنق • وما أن حملت الخطبة على الذين يغررون بالشعب ويدعونه الى التمرد خدمة لمصالحهم الشخصية حتى سرت فى المسجد همهمة ، وأصوات احتجاج وسخط ، واعترض البعض بأصوات مرتفعة ، وسب آخرون الامام ! ، عندئذ انقض المخبرون المندسون بين المصلين على غلاة المعارضين وساقوهم الى الخارج وسط ضجة هائلة من الاحتجاجات والغضب •

وغادر المسجد كثيرون • ولكن الامام دعا الباقين الى الصلاة ، وكانت صلاة حزينة تعلوها الكآبة ••

***

فى أثناء ذلك كانت حجرة بالبيت الثانى على اليسار من الدرب تضم سمارة وزبونا جديدا ، جلست سمارة على حافة السرير نصف عارية ، وتناولت خيارة من قدح مملوء الى نصفه بالماء وراحت تأكلها • وعلى كرسى أمام الفراش جلس الزبون خالعا جاكتته وهو يجرع الكونياك من الزجاجة • جالت عيناه فى الحجرة العارية بنظرة غائبة حتى استقرت على سمارة فأدنى الزجاجة من فيها فتناولت شربة ثم أعادها • وقرعت التلاوة الآتية من الجامع أذنيه ،

فارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة لا تكاد ترى ، ونظر الى الأرض، وتمتم فى امتعاض :

ـ لماذا يبنون جامعا فى هذا المكان ‥ هل ضاقت بهم الدنيا ؟

فقالت سمارة دون أن تتوقف عن قضم الخيارة :

ـ هذا المكان من الدنيا مثل بقية الأماكن ‥

فجرع مقدار كأسين ، وأحد بصره وهو يتفحص وجهها وقال :

ـ ألا تخافين الله ؟

ـ ربنا يتوب علينا ‥

فضحك ضحكة مسترخية ، وتناول خيارة فدسها فى فيـــه ٠ وفى تلك اللحظة كان عبـــد ربه يلقى خطبته فمضى يتابعــه برأس متأرجح ، ثم ابتسم ساخرا وهو يقول :

ـ المنافق !‥ اسمعى ما يقول المنافق !

وجالت عيناه فى الحجرة حتى استقرتا على صـــورة لسعد زغلول قد بهتت من القدم ، فتساءل وهو يشير اليها :

ـ هل تعرفين هذا ؟

ـ ومن لا يعرفه ؟

فأفرغ بقية الزجاجة فى جوفه وقال بلسان ثقيل :

ـ سمارة وطنية وشيخ منافق !

فقالت متنهدة :

ـ يابخته ! ، بكلمتين يربح الذهب ، ونحن لا نستحق قرشـــا الا بعرق جسمنا كله ‥

فقال ممعنا فى السخرية :

ـ ثمة رجال محترمون لا يختلفون عنك فى شىء ولكن من يجد الشجاعة ليقول ذلك ؟

ـ وقاتل نبوية معروف للجميع ولكن من يجد الشجاعة ليشهد بذلك ؟

فهز رأسه أسفا وقال :

ـ نبوية !.. المسكينة !.. من قاتلها ؟

ـ شلضم الله يجحمه ..

ـ يا ساتر يا رب ، الشاهد عليه شهيد ، من حسن الحظ أننا لسنا المذنبين وحدنا فى هذا البلد ..

فقالت بضجر حاد :

ـ لكنك تضيع الوقت فى الكلام ..!

***

وصمم الشيخ عبد ربه على استغلال ما وقع له فى الجامع لصالحه فحرر شكوى الى الوزارة ضمنها ما وجه من اعتداء عليه بسبب خطبته « الوطنية » ، وسعى الى نشر الحادث فى بعض الصحف بصورة مبالغ فيها وبخاصة تدخل رجال البوليس للدفاع عنه والقبض على المعتدين . وبات عظيم الأمل فى أن تنظر الوزارة الى تحسين حالته بعين الاهتمام . غير أنه عندما حان وقت درس العصر لم يجد مستمعا على الاطلاق . ورمى بصره من الباب الى دكان العصير فرأى الرجل منهمكا فى عمله فظن أنه نسى الدرس ، فاقترب من الباب ونادى بصوت باسم :

ـ الدرس يا عم حسنين .

والتفت الرجل على الصوت بلا ارادة لكنه سرعان ما أبعد رأسه فى تصميم وبحركة نبذ حاسمة ، وخجل عبد ربه ، وندم على ما بدر منه من نداء ، وتراجع وهو يلعنه ألف لعنة .

وحين الفجر صعد المؤذن الى أعلا المئذنة فى ليل ساج رطيب ، وبدر ساطع ، وسكون مؤثر . وأذن هاتفا « الله أكبر » . وفى لحظات الاستعداد لمواصلة الأذان انطلقت صفارة الانذار فى عوائها المتقطع الرهيب فدق قلبه دقة عنيفة لوقع المفاجأة . واستعاذ

بالله وهو يتمالك أعصابه واستعد من جديد لمواصلة الأذان حالما تتوقف الصفارة عن العواء ، اذ أن الانذار بغارة بات عادة ليلية تمر بسلام منذ أعلنت ايطاليا الحـــرب على الحلفاء ٠ وهتف من الأعماق « لا اله الا الله » ٠ وغناها بصـــوت لا بأس به ٠ واذا بانفجار يدوى مرعدا ارتجت له الأرض فغاص صوته فى أعماقه ، وتجمد فى موقعه وأطرافه ترتعش وعيناه تحملقان فى الأفق البعيد حيث لاح لهيب أحمر ٠ وتراجع الى الباب مقتلعا قدميه من الأرض ومضى يهبط السلم بركبتين مخلخلتين ٠ وبلغ أرض الجامع فى ظلام دامس فاتجه نحو الامام والخادم مستدلا عليهما بتهامسهما ، ثم قال بصوت متهدج :

ـ غارة جديدة يا جماعة ٠٠ كيف العمل ؟

فقال الامام بنبرة مبحوحة :

ـ المخبأ بعيد ، ولعله اكتظ بكل من هب ودب ، والجامع متين البنيان وهو خير ملجأ ٠٠

وجلســـوا فى ركن وسرعان ما انطلقت أفواههم بالتـلاوة ٠ وترامت من الخارج أصوات شتى ٠٠ وقع أقدام مسرعة ، نداءات ، تعليقات مضطربة ، صرير أبواب وهى تفتح أو تغلق ٠ ومرة أخرى انصبت على الأرض قذائف متلاحقة فزلزلت الأعصـــاب وخرست القلوب ، وصاح خادم المسجد :

ـ الأولاد فى البيت ، بيت قديم يا سيدنا !

فقال الامام بصوت متحشرج ٠

ـ ربنا موجود ٠٠ لا تتحرك من مكانك ٠٠

واندفعت مجموعة من الناس الى داخـل الجامع وبعضـــهم يقول :

ـ هذا آمن مكان ٠٠

فقال صوت غليظ :

ـ انه ضرب حقيقى لا كالليالى الماضية ..

فانقبض قلب الامام لدى سماعه الصوت . هذا الوحش الآدمى ، أليس وجوده بنذير شر ؟. وجاءت جماعة جديدة أكثف من الأولى ، وندت عنها أصوات نسائية غبر غريبة عن الشيخ . وهتف صوت قائلا :

ـ طارت الخمر من رأسى ..

وأفلت من الامام زمامه فهب واقفا وهو يصيح بعصبية :

ـ اذهبوا الى المخبأ ، احترموا بيوت الله ، اذهبوا جميعا ..

فصاح به رجل :

ـ اسكت يا سيدنا ..

وارتفعت ضحكة ساخرة غير أن انفجارا شديدا دوى حتى صك الآذان فضج الجامع بالصراخ ، وامتلأ الامام رعبا فصاح يجنون كأنما يخاطب القنابل نفسها :

ـ اذهبوا .. لا تدنسوا بيوت الله ..

فهتفت امرأة :

ـ يا عيب الشوم !

فصرخ الامام :

ـ اذهبوا عليكم لعنة الله ..

فاحتدت المرأة قائلة :

ـ انه بيت الله لا بيت أبيك !

وصاح الصوت الغليظ :

ـ اسكت يا سيدنا والا كتمت أنفاسك .

وانتشرت التعليقات الحادة والسخريات اللاذعة حتى همس المؤذن فى أذن الامام :

ـ أستحلفك بالله أن تسكت ..

فقال عبد ربه بتعثر من يجد مشقة فى النطق :

ـ أترضى أن يكون الجامع مأوى لهؤلاء ؟!

فقال المؤذن بتوسل :

ـ ليس لديهم غيره ، أنسيت أنه حى قديم قد يتهاوى بالكلمات لا بالقنابل ..

فضرب الامام راحته بقبضته وقال :

ـ هيهات أن يرتاح قلبى لاجتماع كل هؤلاء الأشرار فى مكان واحد ، ان الله لا يجمعهم فى مكان واحد الا لأمر ..

وانفجرت قنبلة فخيل الى حواسهم الملتهبة أنهـــا انفجرت فى ميدان الخازندار ، والتمع لها بريق خاطف فى فراغ الجامع كشف عن أشـــباح مرتعدة لحظة قبل أن تبتلعها الظلمة العميـــاء مرة أخرى ، فأطلقت الحناجر عواء مزعجا ، وصوتت النساء ، والشيخ عبد ربه نفسه صرخ وهو لا يدرى . وتطايرت أعصـــابه فاندفع يهرول نحو باب الجامع ، وجرى خادم المسجد خلفه يحاول منعه لكنه دفعه بقوة متشنجة وهو يصيح :

ـ اتبعانى قبل أن تهلكا ..

مرق من الباب وهو يقول مرتعدا :

ـ لم يجمعهم الله فى مكان واحد الا لأمر ..

ومضى مهرولا يخوض ظلاما دامســـا ، واستمرت الغارة بعد ذلك عشر دقائق تساقطت فى أثنائها أربع قنابل . وشمل الصمت المدينة مقدار ربع ساعة أخرى ثم انطلقت صفارة الأمان ..

ومضت الظلمة ترق أمام البكـــرة الوانية ، ثم تبدت طلائـــع الصباح فى مثل حلاوة النجاة .

لكن الشيخ عبد ربه لم يعثر على جثته الا عند الشروق ..


موعد

أسعد ما فى هذا اليوم هو هذا الوقت من الليل · انتهت متاعب الواجبات ، استقر كل شىء فى موضعه على أحسن حال ، حتى المطبخ بات أنيقا نظيفا كأنه معروض للبيع ، الخادم أوت الى غرفتها لتنام ، لم يبق الا جلسة مريحة طويلة يبهجها الحب العائلى حول الراديو المردد لشتى المسرات · ولولو الصغيرة لا تنام ، لا تود أن تنام ، ولا أن تكف عن اللعب والشقاوة ، ولكن هذا السيد ، هذا الزوج السعيد ، ما باله ! ، لولو العزيزة لا تدع لها فرصة للتفكير · انهـا ترمى بنفسها عليها بلا نذير ، فترتطم الرأس بالرأس ، أو تنشب الأظافر الصغيرة بالجلد أو الرقبة ، وكافة المساحيق لا تنجح فى اخفاء آثار هذه الأظافر الصغيرة ، بنت لم تجاوز الثالثة ولكنها عفريتة بكل معنى الكلمة ، وكانت هى جديرة بأن تكون أسعد الناس بها لولا ما يبدو على الأب من تغير حقيقى ، وها هى تختلس النظرات اليه رغم موقفها الدفاعى الدائم من لولو · وها هو غارق فى المقعد الكبير مطروح الرأس الى الوراء ينظر الى السقف تارة ، وتارة الى الراديو من فوق الزجاجة الذهبية السائل القائمة على ترابيزة أمامه · معهم لكنه ليس معهم · فى بعض رحلاته التجارية كان أقرب اليهم مما هو الآن · ماذا غيره ؟·· ماذا طرأ عليه ؟!· وقلبها يحس بالمخاوف وهى بعيدة ولذلك فهو لم يذق الراحة منذ ·· منذ كم من الوقت ؟!· يا الهى شد ما يبدو الوقت قصيرا أحيانا اذا قيس بالأرقام على حين تتمزق الأعصاب من طوله تمزقا · وما هذه العادة الوحشية الجديدة ! · انه يجلس هذه الجلسة لا ليحادثها ولا ليلاعب لولو ولكن ليشرب الخمر · ويمعن فى الشراب ليلة بعد أخرى ، ويفرط فى التدخين فدائما تتلوى حول رأسه سحاباته الشاحبة ، ألا ما أفظع هذا كله ·

ويضاعف من الحسرة أنه مثال تغبط عليه فى حسن المعاشـــرة والنجاح فى الحياة · كهربائى محترم وصاحب دكان لبيع الأدوات الكهربائية واصلاحها ، ولم يكن يضـــايقها أن يذهب الى القهوة الخديوية كل مساء ليلعب الطاولة ســاعة أو ساعتين ثم يعود الى بيته حاملا ما لذ وطاب من حلوى أو فاكهة ، يعود اليهــا ، والى لولو ، فيحيى جلســـة عائلية دافئة بالمحبة والمسرة ، هكذا مضت حياتها الزوجية القصيرة السعيدة ، الى ما رصعت به لياليها من سهرات لطيفة فى بيوت الأسرة أو فى السينما وما يستتبع ذلك عادة من تعليقات أو مناقشات تزيد الحياة بهجة وحيوية · وأما الخلافات التى كانت تتسرب بعض الأحيان الى حياتهما فلم تبلغ درجة خطيرة قط ، ولم يحدث أن تركت أثرا حتى الصباح · ترى هل ينطوى ذلك كله فى ذمة التاريخ ؟·· هـــل ·· يا لهذه الطفلة الصــغيرة التى لا تتعب من الشقاوة أبدا ·· انهـــا تحمل على أبيها لكنها سرعان ما تصد عنه لفتور استجابته واستسلامه دون دفاع مثير ، حتى الكأس التى أراقتها عند تعلقها بالترابيزة لم تغضبه ·

ــ يا عزيزى ، لماذا تشرب هكذا ؟

ليته بنفعل أو حتى يغضب فى سبيل أن يبوح بمكنونه :

ــ لا ضرر فى ذلك ··

ــ لكنه ضار بلا شك !

ــ لا تصدقى ما يقال ··

ولم يمهلها لتتكلم فقال باسما :

ــ مللت التسكع فى الخارج ، وأنا سعيد هكذا بين زوجتى وابنتى !

ــ لكنك تبقى معنا لتشرب !

ــ بل أستكمـــل هنائى بشىء من الشراب ليبعث الراحـــة فى القلب ··

يحاول أن يبدو طبيعيا ولكنها تراه بقلبها لا بعينيها ، وقلبهـــا كرماد فى مهب الريح .

ـ وماذا يتعب قلبك ؟

ـ لعلها متاعب العمل وأنا لا أسمح لهـــا بأن تفسد جلستنا الطيبة ..

هكذا الأسئلة والأجوبة كل مرة ، ويبقى لها العذاب الصامت الذى يجد عبثا فى البحث عن مبرر لوجوده . وتلوح فى عينيه نظرة غريبة يرمق بها لولو . نظرة تذوب حنانا ورقة . نظرة تقبل وتعانق وتسفح الدمع . فكيف لا ترتعد رعبا !

ـ ألا يحسن بك أن تنام فى الوقت الذى اعتدت أن تنام فيه ؟

ـ لماذا ننام ؟

ضحكت ضحكة فاترة وحدجته بنظرة ارتياب :

ـ أنت ولا شك تسخر منى ..

ـ معاذ الله ..

ـ الحق انك تعذبنى ..

ـ لا سامحنى الله ان فعلت ..

وربتت خده برقة :

ـ كل شىء على ما يرام ؟

ـ نعم ..

ـ لا شىء يضايقك ..؟

ـ مطلقا ..

ثم قال برجاء :

ـ لا تقلقى نفسك بلا سبب ، أؤكد لك أنه لا يوجـد فى حياتنا ما يدعو الى القلق ، ها أنا أجلس ســعيدا فى أسرتى الصغيرة ، أشرب أحيانا ، وأحيانا أقرأ ، ماذا يقلق فى ذلك ؟!

لم تكن القراءة هواية له ، كان يلقى نظرة عجلى على الجريدة ،

وتقرأ هى صفحة ثم تتركها فتتلقاها لولو ثم لا تتركها الا كومة من مزق ، لكنه يقرأ الآن كتبا · وأى كتب ؟· على حافة العالم ، الحاسة السادسة ، عالم الأرواح ·

ـ أتحلم بأن تكون شيخ طريقة ؟!

ـ هل عندك فكرة عن هذه الأشياء ؟

ـ حسبى ما وجدته فى الدين ··

ـ هذا صحيح ··

ـ فلماذا تقرأ هذا كله ؟

ـ حب استطلاع وتسلية ··

حاولت كثيرا أن تقنع نفسها بأن كل شىء طبيعى وأن أوهامها هى غير الطبيعية ، لكنها كانت كمن يتجاهل انذارات دمار خفى ·

ـ خبرنى كيف حال صحتك ؟

ـ عال !

ـ والعمل ؟!· لا تخف عنى شيئا فأنا شريكة حياتك ··

ـ ليس فى الامكان خير مما كان !

ـ كيف أعرف سرك ؟

وربت على خدها وقبلها · كما كان يفعل فى الليالى السعيدة الخالية · ما أشد الفرق بين الحالين · انه يمثل ولا يستطيع أن يخفى أنه يمثل ·

ـ لا جديد طرأ عليك ؟

ـ عدا شىء من الارهاق !

ـ ما رأيك فى السفر ولو أسبوع !

ـ فكرة وجيهة ولكن لا داعى للعجلة كما تتوهمين ··

وحانت منها التفاتة الى المرآة فلمحته وهو يهم بالكلام بحال تدل على أنه استسلم للاعتراف · استصرخته فى الأعماق أن

يفعل · دعت ربها أن يأمره بالكلام · لكنه إسترخى دفعة واحـدة بسرعة تثير الحنق · وراح يقرأ ·

ـ عدت كما كنت أعزب ·

ـ أنا ؟

ـ كأن لا شريك لك ، عش وحدك ، سأحزن حتى الموت !

ـ ألا يتعب الانسان أحيانا ؟

ـ ماذا عن رجل يشرب الخمر ويقرأ كتب الأرواح ؟

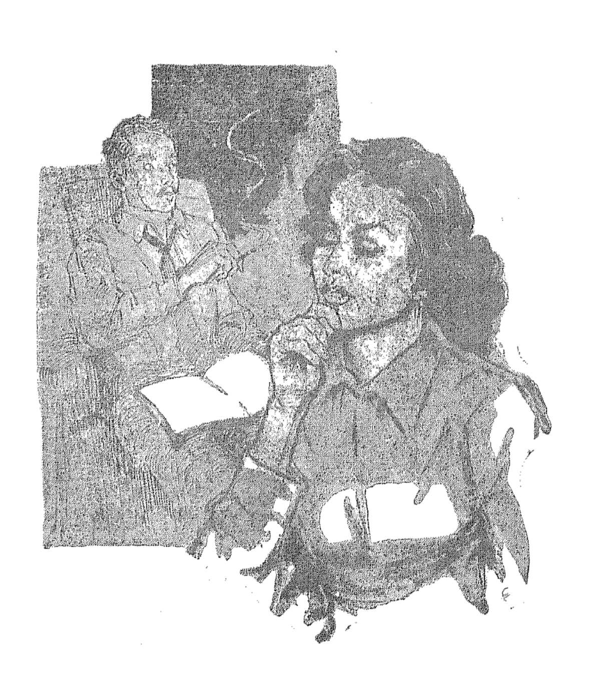
ـ الخمر أيضا مشروب روحى ، هكذا يسمونها !

ـ نضب معينى من الضحك ··

ـ سـوف تضحكين من نفسك عندما تتأكدين من ضـلال أوهامك ··

ـ قلبى لا يكذبنى قط ·

وقال لنفسه ما أصـدق قلبها ، انها تنطق عن قلب صـادق وا أسفاه ، قلب ملؤه خوف حقيقى ، قلب يكابد ارهاصات أحزانه ووحدته الآتية · وهو يتعذب أيضا عذابا مضاعفا لنفسه ولها · وقلبه ينصهر ويتطاير شررا وسيتلاشى فى الفراغ · وأفكاره تحوم بجنون حول انحلال المادة وتشعشع الضوء وانتشار الرماد وتبدد الهواء · لعله كان من الأرحم أن يجد مهـربا بعيدا عن بيته ، أن يشرب فى حانة من الحانات ، بعيدا عن الجلسة السـعيدة التى يتشكل فيها جسده فى ثلاثة أجسـاد حارة محبوبة · ولكن حنينه القاسى وأشواقه الملتهبة ويأسه العميق منعته من الهرب وشدته إلى مثواه الحنون ، بل يود أحيانا لو يغلق دكانه ليجلس طوال وقته مع زوجته وطفلته ، عصمت ولولو ، وأن يقبلهما حتى يكل فوه ، أن يضمهما الى صدره حتى يخذله ساعداه ، أن يغرقهما بدموعه ، وأن يستحم بدموعهما · وكان بوده أن يمثل دوره بمهارة يخدع بهـا امرأته ولكن كان ذلك فوق طاقته ، فهو يقرأ ويشرب ويختلس



اليها النظر ، يتحمل نظراتها المعذبة بصبر ، حابسا دمعه ، شادا على ارادته ، ويصر على ذلك وهو يشعر بأن كل شيء يخصه هباء · الأبوة هباء ، الحب هباء ، الزوجية هباء · ويرى كل معنى وهو يتلاشى فى النسيان والضياع · وهو فى الحقيقة لا شيء يبكى لا شيئا ، البكاء نفسه لا حقيقي كالقراءة ، كالخمر ، كهذه الأنغام الصادرة عن الراديو تنعى الحياة كلها · لم لا يجذبها اليه ويفضى اليها بكل سره ؟ · ولكن أى فائدة ترجى من ذلك الا أن تزيد من تعقيد الأمور واختلاطها وقسوتها ووحشتها ؟· ولم يحول جلسة المساء الى مأتم والغناء الى حداد · لن يؤخر ذلك ولن يقدم ، ولكنه سيهدم الأسرة هدما · أجل ان وحدته تزداد عمقا ويأسا ، لكنه لم يذعن للجبن والأنانية ، فعلى الأقل عصمت لم تفقد الأمل ، وها هى لولو تلعب وتغنى وتخربش · انها الوحيدة التى تبدو جديرة بالحياة · تحياها ببساطة وبلا معنى ولا تفكير · وهى الوحيدة أيضا التى لا تعرف الموت ولا اليأس ويبدو كل شيء لعينيها العسليتين خالدا سعيدا خاضعا · حتى المنغصات البسيطة التى تطرأ على بحبوحتها لا تبقى الا لحظات · قد تتوارى وراء باب صارخة باكية ثم سرعان ما تظهر باسمة الثغر ولما تجف دموعها وفى عينيها نذر مشروعات جديدة للشقاوة والعفرتة · وعصمت لا تدرى شيئا عن لياليه ، فهى تجالسه حتى يحين موعد النوم ، ولما تظن أنه استسلم للنوم تطوى جفونها على أحزانها ، لكنه فى الحقيقة لا يغمض له جفن ، ويظل محملقا فى الظلام وخلايا رأسه تحترق بالأفكار المحمومة · وهيهات أن يدرى أحد شيئا عن أحاديث الظلام ، عن رعب الظلام ·· تطمس معالم كل شيء الا الموت وحده يرى بلا ضوء · وهو كالظلام لا شيء يؤخره عن ميعاده · وإذا جال بالخاطر فقد كل شيء معناه وقيمته وحقيقته ، ويتساءل وهو يكاد يحس تردد أنفاس زوجته ما العمل ؟ : ماذا يطلب من الحياة فى

الأيام الباقيـة ؟ • ويجيء الجواب : كل شيء ، ويجيء الجواب : لا شيء ، وهنا يستوى كل شيء ولا شيء • ولكن النفس تأبى التسليم وتخشى الفراغ فتتعلق بالأحلام • يرى أنه لم يعد زوجا ولا أبا • انه طليق يجوب الآفاق • فوق طيارة تحلق فى الفضاء ، فى سفينة تمخر عباب المحيطات ، على مركبات لا حصر لها ولا عدد • ينطلق من غابة الى بحيرة ، ومن جبل الى سهل ، يخوض الرياض والرمال والمدن ، يجوب مناطق حارة ينصهر بها الحديد ، وبقاعا متجمدة تتجمد فيها النيران ، ويرى من الناس أشكالا وألوانا • ان ذلك كله لا يطرد شبح الموت ولا يؤخره ولكنه يحول الأيام الباقية الى رحلة شائقة ومشاهد عجيبة وتسلية ساحرة • أو يرى نفسه جاريا وراء نوازعه ، يتقلب بين أنواع الشـهوات العاتية ، وينعم بكل طيب ، وينتشى بكل مذهل ، ويمتع غرائزه بالمغامرات والاثارة والعربدة بل وبالانفعالات الرهيبة والعدوان العنيف ، لكنها تظل أحـلاما لأن الموت نفسه لم يستطع أن ينسيه أنه زوج وأنه أب وأنه بالتـالى انسان • لذلك تتبدد الأحلام ويبقى له السهاد ، بل ويواصل عمله فى الدكان ، ويئوب مشتاقا الى جلسته العائليـة المحبوبة ، ولكن لم يجد مفرا من الشراب ، ومن مطالعة كتب الأرواح ، سعيا وراء طمأنينة ولو تكن وهمية ، وسلام ولو على غير أساس • حتى ايمانه الراسخ انهزم أمام الموت • ليس للشـعر كثافة الموت وثقله • وهو يكاد يراه ويلمسـه • وفظاعة التجربة حملته على دفن السر فى أعماقه ، على الانفراد به وحده ، وعلى كتمانه عن امرأته تعيسـة الحظ ، فلتبق فى قلق هو على أى حال أهون من اليأس ، ولتمـرح لولو فى جو خال من الحقيقة الرهيبة •

وذهب الى قهـوة ماتاتيا على غيـر عادة • كان اليـوم عطلة الأحد ، والوقت عصرا ، والفصل خريفا ، فاتخذ مجلسا عنـد رأس المنعطف تحت البواكى • وقلب عينيه فى تطلع المنتظـر حتى رأى

رجلا ريفيا معمما يقبل نحوه فى عباءة سوداء • كان يشبهه الى حد كبير فتعانقا ثم جلسا حول المائدة والقادم يقول :

ـ كيف حالك يا جمعة ؟ وما الحكاية ؟ ، لم بالله ضربت لى موعدا فى القهوة ؟!

فقال جمعة وهو يبتسم فى ارتباك :

ـ أتعبتك يا أخى ، أنا آسف جدا ••

ـ ليس المجىء من القناطر بالأمر الشاق ولكن ماذا تعنى مقابلتنا فى القهوة ؟

وفكر جمعة قليلا فيما ينبغى أن يقول ، وكان الآخر يتفحصه بعناية فلم يمهله حتى يتكلم وقال :

ـ خلاف عائلى ! ، يقطعنى ربنا ان لم يكن الأمر كذلك ، ماذا عن امرأتك ؟

فقال جمعة بصوت شاحب :

ـ عصمت بخير ، لا خلاف بيننا على الاطلاق !

ـ غريبة ! ، ولماذا لم تدعنى الى بيتك ؟

ـ أريد أن أنفرد بك •

ـ بعيدا عن بيتك !

ـ بعيدا عن كل شىء !

وعاد يتفحصه مليا ثم قال بقلق :

ـ جمعة •• انت لست على ما يرام !

فصمت جمعة • فعاد الأخ يقول بجزع :

ـ خبر أخاك عما بك ••

رفع اليه عينيه الذابلتين ، وقال :

ـ أخى ، أنا فى مسيس الحاجة اليك ، سأعترف لك بكل شىء ، ويجب أن تصدقنى ، الحق أنى سأموت فى خلال أشهر قلائل !

تجمدت قسمات الشيخ وعكست عيناه جميع صيغ الدهشة ، ثم غمغم :

ـ ماذا قلت ! ، مريض ؟ ، كيف عرفت هذا ؟ ، هـل ذهبت الى طبيب ؟

قال جمعة بهدوء نسبى بعد أن أزاح الاعتراف عن صدره هما ثقيلا :

ـ شرعت فى التأمين على حياتى ..

ـ وبعد ؟

ـ رفض الطلب ، ذهبت الى عدد وفير من الأطباء ، انى على يقين الآن من خطورة الحال ..

فندت عن الأخ ضحكة هازئة وقال :

ـ لا أحد يمكن أن يكون على يقين من ذلك الا الله ..

فقال جمعة بفتور :

ـ طبعا .. طبعـــا ، انه فوق كل شىء ، ولكنى على يقين من حالى ..

ـ كلام فارغ ، أستـطيع أن أحكى لك ألف حكاية تثبت أن كلام الأطباء ما هو الا هراء ..

فقال متنهدا :

ـ وأستطيع أن أحكى لك ألفا آخر تؤكد العكس .

واستقر صمت ثقيل . وجاء ماسح أحذية يدق صندوقه ولكن سرعان ما صرف ، وهبت نســـمة رطيبة تحت البواكى على حيـن بدت العتبة كأنها تدور الى الأبد مع المركبات والناس ، ثم قال الأخ بصوت عميق :

ـ يجب أن تقتلع من رأسك هذه الأفكار السود ، هى مرضـــك الوحيد ، واذا أردت أن تطمئن حقا على نفســـك فسافر معى الى القناطر لتزور شيخا عجيبا يقصده الأطباء أنفسهم فى الشـدائد !

فقال جمعة فى بلاهة :

ـ نعم ..

ـ أراك تشك فيما قلت !

فاعتدل جمعة فى جلسته وقال :

ـ فلنؤجل هذا الى حين ، انما دعوتك لأمور هامة وعاجلة ..

ـ لكنى لا أحب لك أن تعايش أفكارك المدمرة ..

ـ لندع هذا الحديث جانبا ، الآن خذنى على قد عقلى وأصغ الى ..

فتمتم الأخ بمرارة :

ـ نعم ..!

فقال جمعة باشفاق ووجوم :

ـ عصمت ولولو ..

ـ عارف ، عارف انك ستتحدث عنهما ..

وهم بالاعتراض ولكن جمعة أشار اليه بالسكوت وقال :

ـ لى شريك فى الدكان وهو رجل طيب مثلك ولكن العمل سيتطلب منك رعاية ، ولا بد لى من الاطمئنان على مستقبل أسرتى ، انا آسف أن أحملك مسئوليات جديدة فى الحياة ولكن لا حيلة لى ، ثم ان لى نقودا فى البنك فلن أتركهما .

ـ تتركهما !

ـ خذنى على قد عقلى من فضلك ، لن يحتاجا الى نقود ولكنهما سيكونان دائما فى حاجة الى رعايتك ..

ندت عن الأخ ضحكة أعرب بها عن استهانته أو عن تظاهره بذلك ، وشرع فى الكلام ولكن أوقفه عنه خروج سنجة الترام من السلك الكهربى محدثة أزيزا حادا وتوهجا خاطفا فأخذ لحظة ثم قال :

ـ ها أنا أجاريك فى أوهامك ما دمت تريد أن آخذك على قد

عقلك ، أتحسب أننى فى حاجة الى هذه الوصية ! ، يا لك من طفل ، أنت أعلم الناس بمكانتك عندى ، فاطمئن الى كل الاطمئنان ، والآن وقد صارحتك فأرحنى بدورك ، لا بد من سفرك الى البلد ولو لأسبوع ..

ـ بكل سرور ، فى بحر أسبوع على الأكثر ستجدنى عندك ان شاء الله ، والآن هيا بنا الى البيت ..

ولكن الأخ كان يعانى من الحديث اضطرابا باطنيا فانصدت نفسه عن كل شىء ، وأبى الا أن يعود من فوره الى المحطة ، وأصر على ذلك . وأراد أن يوصله ولكن الآخر قرر أن ينتهز فرصة وجوده فى القاهرة ليقوم ببعض زيارات هامة قبل السفر فتوادعا أمام القهوة ، ومضى الشيخ الى الناحية الأخرى من العتبة ، واتجه جمعة رأسا الى محطة الأوتوبيس . واستقل سيارة فدارت به دورتها ولكنها اضطرت الى التوقف عند الأزبكية أمام زحام اعترض الطريق .. ونظر جمعة فرأى جمعا حاشدا ـ وآخذا فى التزايد أكثر فأكثر ـ حول سيارة متوقفة . أدرك لتوه أن حادثة وقعت . وأجال عينيه فى الجمع المحتشد لكنه جفل من امعان النظر فحول رأسه بعيدا . وما لبث الأوتوبيس أن تفادى من الزحام فشق سبيله الى ميدان الأوبرا .

وكان فى الجمع المحتشد حول الحادثة مساح أحذية ، وكان ينظر الى الجثة الممددة أمام السيارة بتفحص ودهشة ، ثم قال بصوت مرتفع لمن حوله :

ـ أنا رأيت هذا الشيخ منذ نصف ساعة فقط ، كان يجلس فى قهوة ماتاتيا مع واحد أفندى ..


قاتل

ما المخرج من هذه الوكسة ؟!

منذ خروجه من السجن وهو يعيش متسولا ، قرش من هنـا وقرش من هناك ، بلا عمل ، وبلا أمل · وهو ليس بأول سجن ، ولا آخر سجن فيما يبدو ، ولكن الدنيا مصممة هذه المرة على مقاطعته ، رفضه كل دكان عرض نفسه عليه ، وأعرض عنه كل رجل مأمول ، حتى تجار المخدرات أبوا أن يمنحوه ثقتهم · وتمضى الأيام يوما بعد يوم وهو يتدهور ويجن · ويجلس فى القهوة اذا هده اعياء ، طمعا فى معـــرفة قديمة ، ولكنه ينسى حيث نجلس ، لا يكلمه أحد ، ولا يقرب منـــه نادل ، وتلاحقه نظرات المعلم المتعضة ، حتى يرق له قلب الصبى فيجيئه خلسة بشىء من نفايات المعسل المحروق ، وغرق فى الأحلام كما لم يغرق من قبل · أطعمة الخلفاء وحسان الحريم وبحور الشراب وجبال الســطل ، واسترجع أخيلة القصص التى كانت ترويها الربابة فى قهوة خان جعفر منذ ربع قرن أو يزيد ·· وهوم برأس متلبد الشعر ، وليس على الجســد المتورم بالأقذار الا جلباب متهرىء كالخيش تعشش فيــه حشرات شتى ، وكان يسكن فى جحر بدرب دعبس بالحسينية حجرة فى حوش ربع قديم ، حيث ترقد أمه الضريرة نصف مشلولة ، وهى عجوز تعيش على صدقات الفقراء من الجيران ، هناك يأوى آخر الليل ، وتمضى الأيام وهو لا يلتفت اليها أما هى فلا تشعر له بوجود ولعلها لم تعد تذكره على الاطلاق ، ولكنه لا يكف عن مغازلة الأحلام ، الأميرة والبحر وجبل وبحبوحة عيش لا يحسن تصورها ولو فى الخيال ، وتساءل كثيرا عن المخرج من وكسته ، أين يذهب وماذا يفعل · وهو ذو المــاضى الحافل بالأعمال · اشتغل شيالا ، وموزع مخدرات ، ولصـا ، أما

العراك فبسببه دخل السجن أول مرة ، واستوفى الأربعين من عمره دون أن يهن له عضل ، وكان بوسعه أن يقتلع بيتا من أســـاسه ، ولكنه لا يأكل لقمة الا حسنة لوجه الله ، وهـــذه ثالث مرة ينطلق فيها بعد سجن ولكنه لم يجد الدنيا من قبـــل مغلقة الأبواب كما يجدها هذه المرة حتى لتحدثه هواتف نفسه اليائســـة أحيانا بأن يعود الى الســـجن ليستقر فيه بقية العمـــر · وقبيل خروجه من السجن أول مرة مات ابنه فى مستشفى الحميات ، وحينما كان فى الســـجن آخر مرة اختفت زوجته ، لا يدرى أين ذهبت ولا مع من هربت ، وقليل من النساء من يسعهن الاخلاص لزوج هوايته السجن ، ترى ما هى المعجزة التى يمكن أن تجعل منه هارون « الرشيدى » ؟ ان رأسه يدور من نشوة الأحلام الكاذبة · والدنيا فيما يظهر لم تعد بحاجة الى العضلات القوية · ولكن هل ضاع حقا وانتهى ؟!·

وكان يسير فى الزحام شبه نائم عندما ناداه صـــوت قوى قائلا :

ـ ولد يا بيومى ··

انتبه بعنف نحو الصوت كأنما يستجيب للسعة سوط ، ثم وثب نحو صاحبه باستماتة وهو يبتسم ابتسامة عريضة توددا وتذللا ، ها هو انســـان يناديه أخيرا · وهوى على يده ليلثمها وهو يقول :

ـ أهلا وسهلا بالحبيب ·· أهلا بالمعلم على ركن ســـيد حينا كله ··

فسحب المعلم على يده بخشونة وقال وهو يحبك جبته :

ـ دعك من التواشـــيح يا بن الذين ، لعلك تتحسر الآن على السجن وأيامه الحلوة ·

فقال بيومى فى ملق :

ـ لولا وجود أمثالك فى الدنيا لتحسرت فعلا ··

ـ ها أنت تعود الى التواشيح !

وأشار اليه أن يتبعه ، ثم مضى الى كارتة فاستقلها والآخر فى أثره وهو لا يصدق • وحرك المعلم اللجام فانطلقت الفرس الى طريق الجبل فى خلاء وأمن • وأدرك بيومى أنه مقبل على شىء كبيـــر فلا يمكن أن يحل فى هـــذا المقام لغير ما سبب • وكانت الكارتة تنطلق فى سرعة هادئة مستعرضـــة جناح الجبل المتجهم ، مثيرة وراءها ذيلا من الغبار • وكان المعلم على ركن يلقى ناظريه الى الأفق ، مقطبا ، مشدود عضلات الوجه ، ثم تساءل بلا اكتراث :

ـ هل تقتل الحاج عبد الصمد الحبانى ؟!

استطال وجه بيومى من الدهشة وتمتم :

ـ أقتل !

فقال الآخر ببرود :

ـ نعم يا بن القديمة ••

يتكلم بكل استهانة وأقل ما يعنيه تفاهة الثمن •

ـ القتل شىء لم أجربه •

فشد اللجام وهو يقول ببرود :

ـ اذهب مع السلامة ••

لم يتحرك ولكنه تساءل بوجه متجهم :

ـ لحسابك يا سيد الناس ؟

فأرخى اللجام وهو يدارى ابتسامة قاسية ثم قال :

ـ لحسابى أو لحساب المعلم الكبير ، ماذا يهمك ؟

المعلم الكبير !• الدهل محمود !• صاحب وكالة الخيش وكبير تجار الكيف !• انه يبالغ هذه المرة فى ابعاد الشبهة عن نفسه وعن رجاله وقد أحسن الماكر الاختيار !

ـ أنا خادم المعلم الكبير وخادمك ••

ـ دعنا من الثرثرة ، هل تقتله ؟

فضحك بيومى ضحكة كالزفرة وقال :

ـ فى الجنة ونعيمها !

ـ الله يجحمه ويجحمك ••

واعتبر بيومى الدعوة نوعا من المودة فضحك ، أما المعلم على فتساءل بخبث :

ـ لعلك لم تر النقود منذ خرجت من السجن ؟

ـ ولا قبل ذلك ••

ـ خمسون جنيها •

ـ خمسون !

ـ كلمة واحدة ••

ـ ولكنه قتل !

ـ يا ابن القديمة أنا لا أساوم ••

وهو يحاول ضبط انفعاله :

ـ سأحتاج الى نقود كثيرة • لا تنس أمى العجوز ••

ـ أمك !

وقهقه عاليا وهو يستخرج من جيبه ورقة من ذات الخمسة الجنيهات ومد بها يده قائلا :

ـ عربون ••

فهتف بيومى وهو يلتهمها بعينيه :

ـ لا ، وشرفك يا سيد الناس ••

فحدجه المعلم بنظرة قاسية فتخاذل قائلا :

ـ ليكن العربون عشرة جنيهات ••

ـ أتشك فينا يا ابن المجنونة ••؟

ـ أبدا يا معلم ، ولكنها قد تكون كل نصيبى من الدنيا ••

ـ متى تقتله ؟

فكر بيومى مليا بسرعة ويقظة ثم قال :

ـ أمهلنى أسبوعا ٠٠ السبت القادم ٠٠

ـ خبرك اسود ٠٠

ـ يا سيد الناس أنا مضطر الى هجر الحسينية كيلا أثير شبهة حولى ، ويجب أن أتدبر الامر وأرسم الخطة ، ولا بد أن أعيش هذا الأسبوع عيشة هنية فقد يكون آخر أسبوع لى فى الحياة ٠٠

وأخرج المعلم ورقة أخـرى من ذات الخمسة ، ومد بالورقتين يده وهو يتساءل :

ـ أتعلم ماذا ينتظرك لو ماطلت أو تأخرت ؟

فقال بيومى ضاحكا وهو يطوى الورقتين :

ـ لا أراك الله !

فشد اللجام حتى توقفت الكارتة وهو يقول :

ـ مع السـلامة ٠٠ لا تقترب ناحيتى أو ناحية أحـد منا لأى سبب ٠٠

وثب الى الأرض على حين مضت الكارتة بصـاحبها ، وقف ينظـر اليها متوقعا أن يلتفت الرجل وراءه فيلوح له تحية ولكنه لم يلتفت ، وضغط بيده على الورقتين وكل شىء يدور ٠ رغم الفتونة والمجدعة لم تقبض يده على جنيـه بالكامل الا فيمـا ندر ٠ لكنه أيضـا لم يقتل ٠ ضرب وسرق ولكنه لم يقتـل ٠ لم يقتل وان تكن ضربته قاتلة ٠ وهو يحب الحياة وان بدت أحيـانا أمقت من الموت ولا يحب المشـنقة ٠ ولكن أى جدوى من التفكير وهو سيقتل ان لم يقتل ٠ فليكن حذرا أشد الحذر ، وليرسم خطوه بأناة ، ومهما تكن احتمالات الغد فانه يدخر له أيضا أربعين جنيها ٠ مبلغ لم يجر له فى حسبان ٠ وقد يسـاعده المعلم الدهل فى الاتجـار به فتتحقق الأحلام ٠ وأعلن فى القهوة أنه سـيهاجر من الحسينية سعيا وراء الرزق ، فقال له كل من سـمعه : « مع ألف سلامة » فى أصـوات عالية وشت بارتياحهم للتخلص منه ، فذهب وهو يقول لنفسـه :

لذلك فأنتم تستحقون القتل • وقصد حمام السـوق ، دخله هبابا وخرج منه انسانا • وابتاع جلبابا ولاسة وثيابا داخلية ومركوبا لأنه لم يجد حذاء جاهزا يتسع لقدميه الغليظتين ، وجلس فى محل سيدهم الحاتى يأكل بنهم حتى أذهل النادل ، وطلب كل شىء فقال لنفسه ليت ذلك يدوم بلا قتل • ولم يكن يعرف الحاج عبد الصمد الحبانى أى نوع من المعرفة ، غاية ما فى الأمر أنه لمحه مرات فى حياته بلا تركيز ولا اهتمام • عليه الآن أن يعرف كل شىء عنه وبخاصة الضرورى لانجاز مهمته • اهتدى الى بيته الكبير القديم بدرب الجماميز فدرس موقعه والطرق المؤدية اليه • وحام مرات حول وكالته بالمبيضة • وتفحص الرجل عن كثب حتى انطبعت صورته فى ذهنه وبخاصة وجهه الممتلىء المتألق بالحيوية وأناقته السابغة على جبته وقفطانه • والتقت عيناهما مرة فسرعان ما غض الطرف وزاغ عنه كالمطارد • وتساءل ترى ما الأسباب التى تحمل المعلم على التخلص منه ؟• أليس من حقه أن يعرف لماذا استحق هذا الرجل أن يقتله ؟ • لو كان سأل عن ذلك لسمع كلاما هو الصفع أو الركل • يا لهم من عصابة كأنها القضاء والقدر ! وانه لا يكاد يحل فى مكان حتى يلمح أحد رجالهم ذاهبا أو قاعدا أو قادما • وفى المساء سكر ، وفى سيرك الحملاوى سهر ، وعند عيوشة الفنجرية بات ليلته ، وقال لنفسه مرة أخرى ليت الحياة تمضى هكذا بلا قتل ، وأن يتزوج من جديد ، ويخلف البنات والبنين ، ويواصل الاتجار والربح ويأخذ حذره فلا يرى لمخبر وجها • ترى ماذا ينتظره غدا ؟ • ولكن ماذا كان ينتظره مذ انطلق يلعب شبه عار فى أزقة الحسينية ومنذ انضم الى عصابة زلة ، ومنذ اشترك فى معارك الدراسة والجبل والوايلية ، ومذ عمل برمجيا فى الدروب الساهرة ، ومذ غامر بتوزيع المخدرات فى المقاهى ، ماذا كان ينتظره !؟

وجاء يوم السبت الموعود • استيقظ مبكرا ليستقبل أخطر يوم فى حياته • ملأ أحد جيبيه قطعا من اللحم البارد ووضع فى الآخر زجاجة ، ودس فى صـــدره سكينا حادة النصل • أما المعلم الدهل ورجاله فسيلتزمون الدكاكين ويخالطون الناس نفيا للشبهات ، وهو أدرى بهذه الحيل الســاخرة • هؤلاء الأوغاد المجرمون يجب أن يتلقى منهم أربعين جنيها لا طعنة انتقام غادرة ـ واســتكان وراء شــجرة على مبعدة أمتار من بيت الحاج عبد الصمد الحبانى ، وجعل يختلس النظرات من الباب المغلق حتى فتح وخرج منه غلامان وبنت يتأبطون الحقائب المدرسية • كان بين الثلاثة شــبه ملحوظ ولكن الذى لفت نظره بصفة خاصة هو الشــبه الحاد بين الغلام الأكبر وبين المعلم عبد الصــمد نفسه • وتذكر ابنه المتوفى الذى لم يشهد وفاته وتذكر حزنه الشــديد عليه ، وأحزان الحياة جملة • وما لبث أن بدا المعلم عبد الصمد وهو يتقدم من الداخـل الى نقطة وسط الحوش ، ثم وقف مستندا الى عصاه وهو يفتل شــاربه ، واستدار الى الوراء وراح يخاطب شخصا لا يراه هو من موقفه ثم لوح له بيده ، ثم اتجه نحو البـــاب متمهلا ووجهه الممتلىء يتألق بما يشبه الابتسام • وتساءل عما يجعله يبدو مبتهجا بل وطيبا ؟• ولكن من أدراه أنه ليس كالآخرين ! • كلهم مناكيد لا يبتســمون ابتسامة حلوة الا لذويهم • مأمور السجن مثلا ، يا الهى هل يمكن أن ينسى هذا الرجل !؟ ، مع ذلك دعى مرة الى حجرته فوجده يمازح ابنه الذى جاء لزيارته ويغرقان فى الضــحك معا كأنما هو أدمى كالآدميين ! • تتبع الرجل عن بعد وهو يشــعر بقلق ود معه لو ينتهى كل شىء فى غمضة عين • والرجل يسير فى اطمئنان عجيب فلا يمكن أن يخطر له ببال أنه لن يرى أسرته وأولاده مرة أخـرى ، وأن هــذا اليوم هو آخر عهده بالحياة ، وأن الرجل المسكين الذى يتبعه وهو غافل عن وجوده •• هذا الرجل هو الذى سيقضى عليه ،



هو الوحيد الذى يستطيع أن يتنبأ بمصيره القريب ، الذى ارتضى أن ينفذ فيه القضاء نظير خمسين جنيها لا غير ، فكم يملك الرجل الذى يسير أمامه من مضاعفات هذا المبلغ الذى بيع به ؟

وتخلص من أفكاره منتبها إلى الطريق فتساءل أين يمضى الرجل ؟. ليس هذا هو السبيل الى المبيضة ، لعله يقصد الى درب سعادة ، لم لم يذهب الى وكالته ؟ ، انه ذاهب الى هذا البيت الذى يقيمون سرادقا أمامه ، جاء الرجل ليشيع جنازة ، هذا واضح فيا له من صباح !.

وفعلا قصد الحاج عبد الصمد بيت الميت فعزى أهله بحرارة ، ثم توارى وراء الباب ، واستمر بيومى فى سيره نحو نهاية الطريق وعيناه تفتشان عن مكان يستقر فيه الى حين ، وامتدت يده الى اللحم البارد المكوم فى جيبه كالتين المجفف فتناول قطعة وراح يمضغها ، ونازعته نفسه الى جرعة كونياك ، ولكنه قاوم ذلك وأجله الى الساعات الحاسمة ، وترامى اليه الصوات فى موجات متقطعة ، وبدرجات متفاوتة بين الشدة والاعتدال ، لكنه اشتد جدا حوالى الحادية عشرة ، منذرا باختفاء انسان نهائيا من الدنيا . وخرج النعش محمولا على الأعناق ، ومشى الحاج عبد الصمد وراءه فى الصف وهو يجفف عينيه بمنديل كبير ، وتوقف بيومى عن التفكير مأخوذا بشدة الصراخ واكفهرار الوجوه ورهبة المنظر .

وتخفف من مشاعره فى الطريق ، ونظر الى صاحبه وهو ما زال يجفف عينيه ، ثم تساءل مرة أخرى لم يريدون قتله ؟!. لو مات الآن لكفاه قتله ، لكن تضيع الاربعون ، بل وربما طولب بالعربون ! . ولم يشأ أن يتبع النعش حتى المدفن فوقف عند أول الطريق .

ووردت على ذهنه فكرة غريبة وهى أن يعمل ترابيا . هى مهنة رابحة فيما يظن ، ولن يسأل ــ فيما يظن أيضا ــ ان تقدم لها عن

ماضيه ، ولن يجد صعوبة فى زيادة دخله بتجارة الكيف وما أروجه بين القبور ؟· ومضى يحلم من جديد مستعينا بذلك على قتل الوقت حتى رأى الحاج عبد الصمد راجعا ، ثم تبعه حتى رآه يدخل الوكالة بالمبيضة فمال الى قهوة عند رأس الطريق وجلس · احتسى الشاى ودخن أكثر من جوزة وأكل عددا من قطع اللحم ، وهو يراقب مدخل الوكالة دون انقطاع تقريبا ، ورأى شخصا يغادرها فلم يصدق عينيه ، المعلم الدهـل محمود نفسـه ! · الرجـل الرهيب الذى لحسـابه سيقتل عبد الصمد · بل رأى الحاج عبد الصـمد وهو يودعه خارج الوكالة ، رآهما يتبادلان الضحكات ، وتواصل ذلك حتى استقر المعلم الرهيب فى عربته وانطلقت به · اذن لم تنقطع بينهما المودة ! · يا له من وغد ذلك الجبار الرهيب · هو جبـار بلا ريب لكنه لا ريب كذلك فى أنه يفكر فيه ـ هو المسكيـن ـ طيلة وقته ، ينتظر على قلق نتيجة عمله ، يتمنى له النجاح والتوفيق · يجرى اسمه على لسـانه مرات ، ويطوف بذهنه عشرات المرات ، الا ما أخطر شأنك يا بيومى هذه الأيام واليوم أخطرها جميعا وهو آخرها أيضا ، أما الغد ؟!· وشدت قبضة على قلبه · غدا سيكون شيئا من آلاف الأشياء ، من ملايينها ، أو لا شىء ؟ · واذا فشـل سيجد نفسه هدف نقمة وانتقام ، وستضيق به الأرض · والمسـألة فى حقيقتها العارية أنه سيقتل رجلا لا يعرفه ولم تتصل بينه وبينه الأسباب على أى وجه كان لحساب أناس يمقتهم لحد المرض ·

لبث فى القهوة حتى الرابعة مساء ، وهنالك صدرت عن الوكالة حركة تنذر بالختام · دخلت اليهـا عربات اليد ، وتتابع خـروج العمال ، وأغلقت النوافذ ، ثم خرج الحاج عبد الصمد يتبعه أربعة من الموظفين · تأهب بيومى للقيام ولكنه رأى الجماعة مقبلة نحو القهوة ، ثم جلسوا على بعد أذرع من مجلسه والحاج يقول :

ـ فكرة ، أستريح هنا قليلا قبل أن أذهب الى المأتم ··

وجاءت المشروبات وراحوا يحتسون القهوة والشاى ، ثم تنهد الحاج عبد الصمد وقال :

ـ الله يرحمك يا سى عبده ، من يتصور أنك دفنت اليوم !

فقال أحد رجاله وهو يتحلب ريقه :

ـ كان بالأمس يجلس بيننا فى مثل هذه الساعة ٠

ـ وكان ذلك كل يوم ٠٠

واسترق بيومى اليه نظرة فرآه حزينا مكتئبا من الذكرى كآبة واضـــحة ، غير أن صحته بدت قادرة على جرف الأحزان جميعا ، وله وجه ملىء وعنق مكتظ وكرش ضخمة فلن يجد صــــعوبة فى اصابته ، سينتهى كل شىء آخر الليل ، عنــد عودته من المأتم ، وفى الموضع الذى اختاره بعناية بعد معاينة مسكنه والطريق المفضـــية اليه ٠

وتساءل أحد رجاله :

ـ أسافر غدا الى الصعيد ؟

فقال الحاج :

ـ نعم انها صفقة تزن ثقلها ذهبا ، ولم نكن نحلم بها ٠٠

ـ ولحد كام أدفع ؟

ـ كما اتفقنا بصفة عامة ، ولك أن تزيد حتى المائة ، انها صفقة مضمونة ٠٠

وابتسم ابتسامة متألقة وكأنما نسى الحزن ، وإذا برجل يقوم وهو يقول فى اعتذار :

ـ آن لى أن أذهب حتى لا تفوتنى المغرب ٠٠

فقال له :

ـ مع السلامة ، حرما ، ولا تنس موعدنا غدا ٠٠

ـ الساعة الخامسة !

ـ الســـاعة الخامسة ، وان تأخـرت لا تقلق ، ســـألحق بك حتما ٠٠

واضـــطرب بيومى كلمـا تكلم الحـــاج عن يقين ، أو ضرب موعـدا ، أو عكست عيناه الطمأنينة والثقة ، لمـــاذا يقتل هـــذا الرجل ؟ ٠ انه لا يعرفه ، لم تكد تستقر صورته فى ذهنه ، لا يكرهه ، ولا يحنق عليه ، ولا يأتيه أى ضرر من ناحيته ، فلماذا يقتله ؟ ٠ لكنه اذا لم يقتله قتـــل ، واذا قتله ابتسمت له الدنيا ، أو هكذا وعد ٠ يحســن به ألا يستسلم للأفكار المثبطة للهمة ٠ وليطمئن الى أنه سينجو من الاتهام تماما ٠ أى سبب يدعوهم الى الاشـــتباه فى أمره ؟ ٠ أى سبب هناك يدعوه الى قتـــل هذا الرجل ؟ ٠ الحق أن اختياره لقتله هو فى ذاته عمل بارع يدل على عراقة المجـرمين فى الاجرام ٠

وقال الحاج عبد الصمد :

ـ فى رمضان القادم وعليكم خير ســيرتفع حظنا باذن الله الى مداه الأعلى ٠٠

رمضان القادم ؟٠٠ شد ما يؤثر صوت الرجل فى أعصـــابه ٠ انه يخشى أن يظل يسمعه حتى بعد الموت ٠

ووقف الحاج وهو يقول :

ـ آن لى أن أذهب الى المأتم ، سلام عليكم ورحمة الله ٠٠

وتبعه عن بعد حتى دخل السرادق بدرب سعادة ، فذهب بعيدا عن أضواء المصابيح ، ثم قبع فى ركن مظلم ، كان على ثقة من أن صاحبه لن يغادر السرادق الا فى آخر زمرة تغادره فمضى يأكل قطع اللحم ويحتسى الكونياك ٠ وهو اذا شرب توهجت أعصـــابه وتوثب قلبه وفارت جـراثيم العدوان فى دمه ٠ وترامت اليـــه التلاوة من مقرىء حسن الصـــوت فأمعن فى الأكل والشرب وغرق فى دوامة من الهذيان الباطنى ، وجاء شرطى يتبختر فانقبض صـــدره ، انه

يســـتطيع أن يعرفه بأكثر من حاســـة ، بالعين والأذن وبالأنف أيضا · ذلك أنه ينفث رائحة جلدية خاصة تذكره بنقطة البوليس ، والصـــفع واللعنات ، وزنزانة الســـجن ، والجردل ، والبرش ، والغرفة المظلمة · مر به ، ثم عاد ، وتريث قبالته لحظة ملقيا بثقله على ساق واحـــدة ، ثم تأبط بندقيته وذهب ، وتتابع الوقت حتى لم لم يبق فى السرادق الا آحاد · عند ذاك نهض وكل شيء يبدو أحمـــر فى عينيه ، ومضى فى ســـبيل درب الجماميز وهو يتحسس السكين فى صـــدرته · البيت وما حوله خال نائم ، لا دكاكين ولا مارة ، وثمة حارة بين شارع السمهرى والدرب ، غير قصـــيرة ، ضيقة ، مظلمة ، خالية ، فعند أولها لبد ، وفى مخبأ يرى بوضوح شـــارع السمهرى والقادمين منه على حين تخفيه الظلمة عن الأعين ، وقف يتربص ويده قابضة على السكين والوقت يمر كحز الألم ·

وعندما دقت ساعة قديمة الواحدة لاح الحاج من بعيد ، ولكن كان بصحبته آخر · فترت دقات قلبه ، وقال لنفسه انه اذا لم يجهز عليه الآن فلن يعود الى المحاولة مرة أخـرى وسيطارده الموت الى الأبد · قدم الرجلان حتى توسطا شارع السمهرى وما زالا يتقدمان حتى غص بالقنوط · أوشك أن يتقهقر من مكمنه مغلوبا على أمره ولكن الرجلين توقفا عن الســـير ، ثم تصافحا ، ومال الآخر على عطفة جانبية ، وتقدم وحده عبد الصمد · شـد على أعصابه مرة أخرى وهو يسدد نحوه النظر · وتحفـز بكل قوة وجارحة · وكان الحاج يســـير متمهلا · يد قابضة على العصـــا والأخرى تعبث بسلسلة الســـاعة ، والهدوء يكســو وجهه وما يشـــبه التعب أو الضجر · وخيل اليه أن ابتسامة خفيفة انسابت لحظة بين شـفتيه ، وما زال يتقدم حتى دخل الحارة المظلمة فاختفت معالمه واستحال شبحا يسير فى الظلام ، ولم يعد يفصل بينهما الا خطوة · اســتل السكين من صدرته ، واشتدت عليها قبضته ، واستجمع كل قواه ،

ثم انقض عليه بسرعة خاطفة ، وطعنه طعنة قاسية ، لا مهادنة فيها ولا أمل ، ندت عن الرجل صرخة خافتة وترنح جسده الضخم مرة ثم سقط ·

واندفع بيومى هاربا وهو ينتفض ، ناسيا السكين فى صدر الرجل ، ملوث العنق والجلباب ـ وهو لا يدرى ـ بالدم ·

ضد مجهول

لم يكن بالشقة شيء غير مألوف يلفت النظر ، أو يمكن أن يفيد منه المحقق · كانت مكونة من حجرتين ومدخل ، وبصفة عامة كانت غاية في البســـاطة · أما ما استحق الدهشـــة حقا فهو بقاء حجرة النوم في حالة طبيعية واحتفاظهـــا بنظامها العادى رغم أن جريمة قتل فظيعة ارتكبت بها · حتى الفـــراش ظل عاديا ، أو لم يتغير الا بالقدر الذى يطرأ عليه عقب النوم · غير أن الراقد عليه ، لم يكن نائما ، كان قتيـــلا لما يجف دمه ، وهو قد مات مخنوقا كما يدل على ذلك أثر الحبـــل حول عنقه وجحوظ عينيه ، وتجمد الدم حول أنفه وفيه ، ولا أثر وراء ذلك لعراك أو لمقاومة ، سواء في الفراش أو في الحجرة أو في بقية الشقة ، كل شيء طبيعي ومألوف وعادى · وقف ضابط المباحث ذاهلا ، يقلب عينيه المدربتين في الانحـــاء ، يلاحظ ويتفحص ، ولا يخـــرج بطائل · انه يقف أمام جريمة بلا شـــك ، والجريمة لا توجـــد الا بمجرم ، والمجرم لا يستدل عليه الا بأثر · وها هى النوافذ مغلقة جميعا باحكام · فالقاتل جاء من البـــاب ، ومن الباب خرج · ومن ناحيـــة أخرى فالرجـــل مات مخنوقا بحبل فكيف تمكن القاتل من لف الحبل حول عنقه ؟ · لعله تمكن من ذلك وضـــحيته نائم ، فهذا هو التفســـير المقبول لعـــدم وجود أى أثر للمقاومة ·وثمة تفسير آخر ، أن يكون غدر به من وراء حتى أجهز عليه ، ثم أنامه في فراشه وسجاه وأعاد كل شيء الى أصله وذهب غير تارك أى أثر ! · أى رجل ! ، أية أعصـــاب ! · يعمل بأناة وروية وهدوء وأحكام كما يقع في الخيال · يســـيطر على نفسه وعلى القتيل وعلى الجريمة وعلى المكان كله ثم يذهب في سلام ! · أى قاتل هـــذا ! · ورتب خطوات التحقيق في ذهنه ، الباعث على

الجريمة ، التحقيق مع البواب ، والخادمة العجوز ، وافترض افتراضات شتى ، وقاوم ما استطاع انفعالاته الشديدة ، ثم عاد الى التفكير فى المجرم الغريب ، الذى تسلل الى الشقة ، وأزهق روحا ، ومضى بلا أثر ، كأنه نسمة هواء لطيفة أو شعاع من الشمس ٠ وفتش الصوان والمكتب والثياب ، فوجد حافظة نقود وبها عشرة جنيهات ، كما وجد الساعة وخاتما ذهبيا ، يبدو أن السرقة لم تكن الباعث على الجريمة ، فما الباعث اذن ؟!٠

واستدعى البواب لاستجوابه ، وهو نوبى طاعن فى السن ، يعمل فى العمارة الصغيرة بشارع البراد بالعباسية منذ عشرات السنين ، وقد أدلى بأقوال لها أهميتها ؛ فقال عن القتيل انه مدرس بالمعاش ، يدعى حسن وهبى ، فوق السبعين ، يعيش وحده مذ توفيت زوجته ، وله بنت متزوجة فى أسيوط وابن طبيب يعمل فى بور سعيد ، وهو أصلا من دمياط ، وتقوم على خدمته أم أمينة فتجيئه حوالى العاشرة صباحا وتغادره حوالى الخامسة مساء ٠

ـ وأنت ألا تؤدى له بعض الخدمات أحيانا ؟

فقال العجوز بسرعة وتوكيد :

ـ ولا مرة فى السنة ، أنا لا أراه الا أمام الباب عند ذهابه وايابه ٠

ـ خبرنى عن يوم أمس ٠٠؟

ـ رأيته وهو يغادر البيت فى الثامنة ٠

ـ ألم يكلفك بتنظيف الشقة ؟

فقال الرجل بشىء من العصبية :

ـ قلت ولا مرة فى السنة ، ولا مرة فى حياته ، أم أمينة تجىء فى العاشرة فتطهو طعامه وتنظف الشقة وتغسل الثياب ٠٠

ـ هل تترك نوافذ شقته ـ أو بعضها ـ مفتوحة ؟٠

ـ لا أدرى ٠٠

ـ الا يمكن أن يدخل أحد من النافذة ؟

ـ شقته فى الدور الثالث كما ترى ، فالأمر غير ممكن ، ثم ان العمارة محاطة بالعمارات من ثلاث جهات ، والجهة الرابعة تطل على شارع البراد نفسه !

ـ استمر فى حديثك ..

ـ غادر البيت فى الثامنة ثم رجع فى التاسعة ، وهذه هى عادته كل يوم منذ اكثر من عشر سنوات ، ويبقى بعد ذلك فى شقته حتى صباح اليوم التالى ..

ـ الا يزوره أحد ؟

ـ لا أذكر أنى رأيت أحدا يزوره عدا ابنه أو ابنته ..

ـ متى زاراه لآخر مرة ؟

ـ فى العيد الكبير ..

ـ الا يزوره اللبان أو بائع الجرائد ؟

ـ الجرائد يعود بها بعد مشوار الصباح ، أما الزبادى فتتسلمه أم أمينة عصرا .

ـ هل تسلمته أمس ؟

ـ نعم ، رأيت الغلام وهو يصعد الى الشقة ورأيته ذاهبا ..

ـ متى غادرت أم أمينة الشقة أمس ؟

ـ حوالى المغرب ..

ـ ومتى جاءت اليوم ؟

ـ حوالى العاشرة ، ودقت الجرس فلم يفتح الباب ..

ـ هل خرج اليوم كعادته ؟

ـ كلا ..

ـ متأكد ؟

ـ لم أره خارجا ، وكنت بمجلسى عند الباب حتى جاءت

أم أمينة .. ثم عادت الى بعد ربع ساعة لتخبرنى بأنه لا يجيب فصعدت معها ، ودققت الجرس وطرقت الباب ولما لم يجب ذهبنا الى القسم ..

وقال الضابط لنفسه أن هذا البواب لا يستطيع أن يخنق دجاجة ، ولا أم أمينة ، ولكنهما قد يسهلان ادخال شخص ما واخراجه ، لكن لم قتل الاستاذ حسن وهبى ؟ . هل ثمة سرقة خافية ؟.. هل تركت الحافظة سليمة للتضليل ؟! . وهل وجود مفتاح الشقة بدرج المكتب لعبة أخرى ؟..

وقالت أم أمينة أنها خدمت فى بيت المدرس منذ ربع قرن ، خمسة عشر عاما على حياة زوجه ، وعشرة أعوام بعد وفاتها ؛ ولكن المرحوم قرر أن تبيت فى منزلها منذ ترمله ، وهى أرملة ، وأم لست من النساء ، كلهن متزوجات من عمال وأصحاب حرف ، وأدلت بعناوينهن جميعا .

ــ كان أمس بصحة جيدة ، قرأ الجرائد ، وتلا جزءا من القرآن بصوت مسموع ، وعندما تركت الشقة كان يستمع الى الراديو ..

ــ ماذا تعرفين عن أهله ؟

ــ من دمياط لكنه منقطع الصلة بهم تقريبا ، ولا يزوره أحد الا ابنه وابنته فى المواسم والاجازات ..

ــ هل تعرفين له أعداء ؟

ــ أبدا ..

ــ الا يزوره أحد فى بيته ؟

ــ أبدا ، وفى أحوال نادرة كان يجلس صباح الجمعة فى القهوة مع بعض زملائه أو مع تلاميذه القدامى ..

وتساءل الضابط هل يمكن أن تقع جريمة بلا باعث ودون أثر ؟ . واستكمل الاجراءات الواجبة ففتش بمساعدة معاونيه

مسكن البواب ، وبيوت أم أمينة وبناتهـــا الست ، ثم اســـتدعى أصـــحاب المرحوم القلائل ، ولكن لم يدل أحد منهم بشىء ذى بال ، وبدا مصرع الرجل لغزا محيرا للألباب · وشاع الخبر فى الشارع ، ثم نشر فى الجرائد فعلمت به العباسية كلها وأسـف له كثيرون · وأكد الطبيب ابن القتيل أن والده لا يملك شيئا ثمينا على الاطلاق ، وأن حسـابه فى البنك لا يتجاوز المائة الجنيه وفرها لحاجة طارئة ثم لخرجته آخر الأمر ، وأكد أيضـا أنه ليس له أعداء ، وأن قتله قد يكون نتيجة طمع فى ثورة وهميـة خمن المجرمون وجودها فى مسـكنه · وجرى تحقيق دقيق مع البواب وأم أمينة ، لكنه لم يؤد الى شىء فأفرج عنهما بلا ضمان · ووجد ضابط المباحث نفسـه فى حيرة ضبابية وعانى احسـاسا بالهزيمة لم يمر به من قبـل · كان ذا تاريخ مشرف فى مكافحة الجرائم شـهد به الريف والبنادر ، وفى الجملة كان من الضـباط ذوى السمعة العالية ، وهـذه أول جريمة ينهزم أمامها هزيمة مطلقة بلا بارقة أمـل ولا عزاء ·.وبث عيونه فى أوساط المشبوهين فى الجبـل وأطراف الوايلية وعرب المحمـدى لكنهم لم يرجعوا بفائدة · وقـرر الطبيب الشرعى أن الأستاذ حسن وهبى مات خنقا ، وتفحص جميع ما يخصه من أشياء بأمل العثور على بصمة أو شعرة أو أى أثر مما يتركه المجرمون ، ولكن مجهوداته ضاعت هباء ، ووقف الجميع أمام فراغ صـامت ·

ومن شدة الهزيمة شعر الضابط محسن عبد البارى بالخجـل وتنغص عليه صفوه ، وكان يقيم بشارع يشبك غير بعيد من القسم ، فلما لاحظت زوجته كربه قالت له برقة :

ـ لا يجوز أن تحرق دمك بلا سبب ··

فلاذ بالصمت ومضى يسلى همه بالقراءة · وكان مغرما بقراءة الشعر الصوفى كأشعار سعدى وابن الفارض وابن العربى ، وهى هواية نادرة بين ضباط المباحث ، ولذلك أخفاها حتى عن خاصة

الأصدقاء ٠ وظل الحادث حديث العباسية ، لغموضه المحير ، ولأن المرحوم كان مدرسا لكثيرين من شباب العباسية وكهولها ٠ ولكن بمرور أسبوع أو نحوه غاص الخبر فى بحر النسيان المخيف ، وحتى محسن عبد البارى قيده ضد مجهول ، وقال لنفسه وهو يزدرد هزيمته المرة « مجهول ! ٠٠ هذا هو حقا المجهول ! » ٠

وبعد شهر دعى الضابط الى سراى قديمة بشارع العباسية العمومى بسبب جريمة مشابهة ! كأن الجريمة الأولى وقعت من جديد فلم يكد محسن يصدق عينيه ٠ وكان القتيل لواء قديما من رجال الجيش ، وكان يعيش مع أسرته المكونة من زوجة فى الستين وأخت أرملة فى الستين أيضا ، وابنه الأصغر وهو طالب جامعى فى العشرين من عمره ، وكان يقيم فى السراى أيضا البواب والبستانى وسائق السيارة وطاهية وخادمتان ٠

وجد اللواء صباحا فى فراشه كالنائم ، شأنه كل يوم ، الا أن الوقت تأخر به عن المألوف مما دفع بزوجته الى تفقد حاله ٠ لكنه لم يكن نائما ، بل مخنوقا ، وأثر الحبل محفور حول عنقه ، وفى عينيه جحوظ فظيع ، وحول الفم والأنف دم لزج ٠ أما الحجرة فلم يختل بها نظام ، ولا الفراش نفسه ، ولم يسمع صوت فى الليل ليوقظ النائمين فى الطابق معه من أهله ، وجملة القول أن الضابط وجد نفسه مرة أخرى أمام اللغز القاتل الذى سحقه منذ شهر فى مسكن المدرس حسن وهبى أمام المجهول بصمته وغموضه وغرابته وقسوته وسخريته واستحالته ٠

ـ هل وقعت سرقة ؟

ـ كلا ٠٠

ـ له أعداء ؟

ـ كلا ٠٠

ـ والخدم ، أكانت علاقته بهم طيبة ؟

ـ جدا ٠
ـ أتشكون فى أحد ؟٠
ـ أبدا ٠٠ .

ومضى الضـــابط فى الاجراءات بلا أمل ، عاين السراى معاينة دقيقة ، واستجوب الأهل والخدم ، وكان يتوجس خيفة من مجهول ، ويشعر بأن مؤامرة تدبر فى الظلام للقضاء على ضــحايا كثيرين ، وعلى سمعته وكافة القيم فى حياته ، وشـــعر أيضا بأن ثمة لغزا يوشك أن يخنقه بثقل غموضه ، وأنه اذا منى بالفشـــل مرة أخرى فلن يصلح للحياة ولن تصلح الحياة لأحد ٠ ولخطورة شـأن القتيل جاء نفر من كبار رجال المباحث للاشراف على التحقيق بأنفســـهم وقال أحدهم باستغراب :

ـ توجد جريمة بلا شك ، ولكن كأنها ترتكب بلا مجرم ٠٠!

ـ بل المجرم موجود ، ولعله أقرب الينا مما نتصور ٠٠

ـ كيف ارتكب جريمته ؟

ـ يطوق العنق بحبل دقيق ثم يشد عليــه حتى يزهق الروح ، ولكن كيف يصل الى مكان جريمتـــه ، وكيف يذهب دون أن يترك أثرا ؟

ـ وما الباعث على القتل ؟

ـ بواعث القتل متعددة تعدد البواعث على الحياة !

ـ هل يمكن أن يقتل أحدا بلا سبب ٠٠؟

ـ اذا كان مجنونا فانه يقتل بلا ســـبب ، أو بلا سبب ممـا نقتنع به ٠٠

ـ ما العلاقة بين المدرس واللواء ؟٠٠

ـ كلاهما قابل للموت ٠٠!

ونشر الخبر فى الصفحات الأولى من الجرائد فى عناوين مثيـرة فاهتز له الرأى العام ، وبصفة خاصة أهل العباسية ، وكان اللواء

معروفا منذ عهد الانتخابات حيث رشح نفســه مرارا فانتخب مرة عضوا بمجلس الشيوخ • وجند محســن جميع المخبرين للبحث والتحرى ، وأصدر اليهم تنبيهاته المشددة ، وانكب على العمل برغبة محمومة في الظفر • وعاد الى بيته آخر الليل خائر القوى والنفس ، وصمم على كتم همومه عن زوجته التى بدأت فى ذلك الوقت تعانى متاعب الحبل • وكان أخشى ما يخشــاه أن ينقل من قسم الوايلى موصــوما بالهزيمة ليحل محله آخر كما كان يحل هو محل آخرين فى الريف على عهد التوفيق والنصر • وعبثا حاول أن يسرى عن نفسه بمطالعة الشعر .اذ ثبت ذهنه على الجريمة التى أمست رمزا على هزيمته •

من يكون هـذا القاتل الرهيب ؟ • لا هو لص ولا هو منتقم ولا هو مجنون • المجنون قد يقتل ولكنه لا ينفذ جريمته بهذا الاعجاز السـاحق • انه يقف أمام لغز قوى قهار لا نجاة من عبثه ، فكيف يتحمل مسئولية حماية الأرواح حياله ؟!

ومل الناس ـ وبخاصة أهل العباسية ـ الخوض فى الموضوع ، وفتر اهتمامهم به ، وهدأت النفوس بعض الشيء ، واستحال جزع الضابط حزنا رزينا منطويا فى أعماق النفس •

واذا بالجريمة الثالثة تقع !•

وجاء وقوعها بعد مصرع اللواء بأربعين يوما ، وكان مسرحها بيتا متوسطا ببين الجناين ، وضحيتها شابة فى الثلاثين ، زوجة لمقاول صغير وأما لثلاثة أطفال • وكالعادة وجـد كل شيء على مألوف حاله ، عدا أثر الحبـل الملتهب حول العنق والدم حول الفم والأنف وجحوظ العينين ، ولا أثر بعد ذلك لشيء • وأدى محسـن واجبه الروتينى بروح خامد يائس وقد آمن بأن عـذابه لن ينتهى أبدا ، وبأنه نصب هدفا لقوة لا ترحم • وقالت أم القتيـل وكانت تقيم معها :

ـ دخلت فى الصباح لأتفقد حالها فوجدتها ٠٠

وخنقتها العبرات ، فسكتت حتى انحسرت عنهـــا موجة البكاء وقالت :

ـ كانت المسكينة مريضة بالتيفود منذ عشرة أعوام ٠٠

فهتف محسن داهشا :

ـ مريضة ؟!

ـ نعم ، وكانت حالتهـــا خطيرة ، لكنها ٠٠ لكنهـــا لم تمت بالتيفود !

ـ ألم تشعرى بحركة فى الليل ؟

ـ أبدا ، كان الاطفال نائمين فى هذه الحجرة ، ونمت أنا على هذه الكنبة على مقربة من حجرتها لأسمعها اذا نادت ، وكنت آخـر من نام فى البيت وأول من اســـتيقظ ، فدخلت الحجرة فوجدتهـــا يا كبدى كما ترى ٠٠

وجاء الزوج عند الظهر عائدا من الاسكندرية على حال شـديدة من الحزن ٠ ومضى وقت قبل أن يجد نفســـه فى حال تســـمح له بالاجابة على أسئلة الضـــابط ٠ ولم يكن لديه قول يمكن أن يفيد التحقيق ، كان بالاسكندرية لبعض الأعمال ، أمضى نهـار الأمس فى القهوة التجارية مع أناس سماهم ، وبات ليلته عند أحدهم بالقبارى حيث تلقى البرقية المشئومة ، وصاح الرجل وهو يتأوه :

ـ يا حضرة الضابط ، هذه حال لا تطاق ، ليست الأولى ، قتـــل المدرس واللواء قبـــل ذلك ، أين البوليس ؟ ، النـــاس لا يقتلون بلا قاتل ، وكان عليكم أن تقبضوا عليه ٠

لم يتحمل محسن الطعنات فانفجر هاتفا :

ـ لسنا سحرة ! ٠٠ ألا تفهم ؟! ٠

وسرعان ما ندم على ما بدر منه ، وعاد الى القسم وهو يقول



لنفســـه : « الحق أنى أول ضحية للمجرم ! » وود لو يستطيع أن يعلن عجزه • هذا المجرم كالهواء ، وحتى الهواء يترك فى البيوت أثره • أو أنه مثل حرارة الجو ، ولكنها أيضا تترك أثرها ، وحتام تقيد الجرائم ضـــد مجهول ؟!• وطوق العباسية الفزع • وزادته الصحافة اشـــتعالا • ولم يعد للمقاهى من حديث غيـره ، جرائم الخنق ومرتكبها الرهيب المجهول ، انه خطر داهم وليس أحد بمأمن منه ،وتبددت الثقة برجال الأمن ، وانحصرت الشبهة فى المنحرفيـن والمجانين باعتبارها موضة هذه الأيام • وتبين من البحث أن أحدا من نزلاء مصحة الأمراض العقلية لم يهرب ، ووردت على القســـم رسائل من مجهولين ففتشت بسببها بيوت كثيرة ولكن لم يعثر فيها على أحـــد ذى خطورة ، وكان أكثر المصـــابين من الطاعنين فى السن • وبلغ البعض عن شاب معروف بالهوس والشذوذ من سكان شـــارع السرايات فألقى القبض عليه وسيق الى التحقيق ولكن ثبت أنه فى ليلة مقتل اللواء كان مقبوضـــا عليه فى الأزبكية لتحرشـــه بفتاة فى الطريق ، فأطلق سراحه ، ضـــاع كل مجهود هباء ، وقال محسن فى أسى :

ــ المتهم الوحيد فى هذه القضية أنا !

هكذا كان أمام نفســـه ، وأمام أهل العباســـية ، وأمام قراء الصحف ، وتطايرت اشـــاعات لا يدرى أحد كيف تطايرت • قيل ان المتهم معروف لدى رجال الأمن ولكنهم يتسترون عليه لصلته القريبة بشخصية هامة • وقيل أيضا انه لا يوجد متهم فى الحق والواقع ، ولا جريمة ولكنه مرض خطير مجهول ، وأن معامل وزارة الصحة تعمل ليل نهار فى الكشف عن سره • وتفشت الحيرة والبلبلة بيـــن الناس ••

ويوما ــ وكان قد مضى على مقتل السيدة شهرا أو نحوه ــ أبلغ الشرطى الديدبان بقســـم الوايلى أنه عثر على جثة فى العطفـــة

الملاصقة للقسم • خبر لم يسمع عن مثله من قبل • وهرع الضابط محسن عبد البارى الى مكان الجثة وكان بوسعه ـ لو أراد ـ أن يعاينها من نافذة حجرته ، وجد جثة رجل شبه عار ، متسولا عن يقين ، ملقى لصق جدار القسم ، وكاد يصرخ من شدة الانزعاج حين وقعت عيناه على أثر حبل الخنق حول الرقبة ! • رباه •• حتى هذا الشحاذ !• وتفحص جلبابه كأنما ثمة أمل فى العثور على شىء • ودعى شيخ الحارة للتعرف عليه فقرر أنه متسول من الوايلية الصغرى ، بلا مأوى ، ويعرفه الكثيرون • وجرى التحقيق مجراه لا سعيا وراء أمل ولكن تغطية للهزيمة المزرية • وسئل سكان البيوت القريبة من مكان الجريمة ولكن أى جديد ينتظر ؟ •• ولم لا يسأل المقيمون فى القسم أيضا وهو الملاصق للجريمة ؟ ! • وانتشر المخبرون فى مواطن الشبهات ولكنهم كانوا يبحثون عن لا شىء ، عن خيال ، عن روح • وكرد فعل للحنق الذى غمر النفوس سيق المشبوهون والمنحرفون بالعشرات الى الحجز حتى خلت منهم العباسية جميعا ولكن ما الفائدة ؟ وزيد عدد الشرطة بالشوارع وتضاعف عددهم بالليل • ورصدت الداخلية ألفا من الجنيهات مكافأة لمن يرشد الى القاتل الخفى • وتناولت الصحافة الموضوع بقوة مثيرة فى صفحاتها الأولى ، وتضخم هذا كله فى نفوس أهل العباسية حتى استحال الى أزمة مروعة • ركبهم الفزع ، وعذبتهم الأوهام ، وانقلبت أحاديثهم الى هذيان ، وهجر القادر منهم حيه ، ولولا أزمة المساكن وظروف المعيشة لخلت العباسية من أهلها ، ولكن لعل أحدا لم يتعذب كما تعذب الضابط محسن عبد البارى أو زوجته الحبلى السيئة الحظ • وقد قالت له على سبيل العزاء والتشجيع :

ـ لا لوم عليك ، هذا شىء يعجز خيال البشر ••

ـ لم يعد لبقائى فى وظيفتى معنى ••

فقالت بجزع :

ـ دلنى على تقصيرك ..

ـ يستوى المجهود الضـــائع والتقصير ما دام لا يحفظ روحا ولا يدفع أذى ..

ـ ستنتصرون فى النهاية كالعادة ..

ـ أشك فى ذلك ، فهذا شىء خارق للعادة ..

ولم ينم تلك الليلة . ظل ساهرا يفكر ونازعته رغبة فى الهـرب الى عالم شعره الصوفى ، حيث الهدوء والحقيقة الأبدية .. حيث تذوب الأضواء فى وحدة الوجود العليا حيث العـزاء عن متـاعب الحياة وفشلها وعبثها ، أليس عجيبا أن ينتسب الى حياة واحـدة عابد الحق وهـــذا المجرم الضارى ؟ . اننا نموت لأننا نفقـد حياتنا فى الاهتمامات الســـخيفة . ولا حياة ولا نجاة لنا الا بالتوجه الى الحق وحده ..!

ولم يكد يمضى أســـبوعان حتى وقع حادث لا يقـل غرابة عن سـابقه ، اذ سقط جسم من آخر عربة للترام رقم ٢٢ أمام شـارع عشرة آخر الليل . وأوقف الكمســـارى الترام ومضى نحو مصـدر الصـــوت ، ولحق به السائق ، فرأيا أفنديا على الأرض ، ظنا أنه سكران أو مسطول أو عثرت به القدم ، وسدد السائق نحوه بطاريته اليدوية وسرعان ما ندت عنه صرخة ، ثم صاح وهو يشير الى عنق الرجل :

ـ انظر ..

فنظر الكمسارى فرأى أثر الحبل المشهور . وارتفع صـــوتاهما فهرع اليهما عـــدد من الشرطة والمخبـــرين المنتشرين فى الزوايا والأركان . وفى الحال تم القبض على شـخصين تصادف مرورهما قريبا من مكان الحادث وسيق الجميع الى القسم . وكان للحادث رجة فظيعة ، وكان على محسن أن يبذل مجهودا عنيفا يائســا آخر

للضياع • وافرج عن احد المقبوض عليهما اذ تبين أنه ضابط جيش بملابس ملكية ، وجرى التحقيق مع الثلاثة الآخرين دون أن ينتهى الى شيء • وذاق محسن مرارة الهزيمة والخيبة للمرة الخامسة حتى خيل اليه أن المجرم يتقصده هو بالذات بألاعيبه الجهنمية • وذكرته شخصية المجرم برجل الروايات الخفى ، أو بمخلوقات الأفلام السينمائية التى تهبط الى الأرض من الكواكب الأخرى ، وقال لزوجته وهو يغلى بأحزانه :

ـ من الحكمة أن تذهبى الى بيت والدك بالهرم بعيدا عن هذا الجو المشحون بالعذاب والرعب •

لكنها تساءلت فى احتجاج :

ـ أليس من المخجل أن أتركك على هذه الحال ؟

فقال وهو يتأوه :

ـ ليتنى أجد سببا وجيها لالقاء اللوم على نفسى أو على أى من معاونى ••

ونوقشت المسألة فى الصحف على نطاق واسع فى مقالات مسهبة بأقلام علماء النفس ورجال الدين • أما العباسية فقد اجتاحها الذعر ، وأمست تقفر مع المغرب من سكانها سواء فى المقاهى أو فى الطرق ، وبات كل وكأنه ينتظر دوره • وبلغت الأزمة ذروتها عندما وجدت طفلة بمدرسة البنات الابتدائية مختنقة فى دورة المياه ••

وتتابعت الأحداث بصورة مرعبة • وتلقاها الناس بذهول • لم يعد أحد يهتم بالتفاصيل المملة عن التحقيق والبحث وآراء الباحثين فى الصحف • انحصر التفكير فى الخطر الداهم الذى يزحف غير مكترث لشيء ، ولا يفرق بين شيخ وشاب ، وغنى وفقير ، رجل وامرأة ، صحيح ومريض ، فى بيت أو فى الترام أو فى الطريق • مجنون ؟•• وباء ؟•• سلاح سرى ؟•• خرافة من الخرافات ؟!؟

وغشى الحزن الحى شبه المهجور ، وأنهكه الذعر ، وأغلقت البيوت أبوابها ونوافذها ، ولم يعد لأحد من حديث غير الموت ٠

وكان محسـن عبد البارى يتجول فى الحى كالمجنون ، يتفقد الشرطة والمخبرين ، ويتفحص الوجوه والأماكن ، ويمضى فى يأس تام ، ويناجى يأسـه طويلا ، وهزيمته المريرة ، ويود لو يقدم عنقه الى المجرم شرط أن يعفى الناس من حبله الجهنمى ٠ وزار مستشفى الولادة حيث ترقد زوجته ٠ جلس الى جانب فراشها قليلا وهو يرنو اليها والى الوليد ، مفتر الثغر عن ابتسامة ٠ ابتسامة لأول مرة منذ عهد قصـير ٠ ثم لثم جبينها وذهب ٠ عاد الى الدنيا التى يود ألا يراه فيها أحد ٠ ووجد ما يشبه الدوار ٠ الحياة التى يقضى عليهـا حبل مجهول فتصـبح لا شىء ٠ لكنها شىء بلا ريب وشىء ثمين ٠ الحب والشعر والوليد ٠ الآمال التى لا حـد لجمالها ٠ الوجود فى الحياة ٠٠ مجرد الوجود فى الحياة ٠ أهناك خطأ يجب أن يصلح ؟٠ ومتى يصلح ؟ واشتد الدوار كما يحدث عند يقظة مفاجئة عقب نوم عميق ٠

ونمت أنباء الى مأمور القسـم بأنه تقرر نقل الضابط محسن عبد البارى واحلال آخر محله ٠ استاء المأمور اسـتياء شديدا ، ومضى من فوره الى حجرة الضـابط الذى يقدره خير قدره ٠ رآه مستلقى الرأس على المكتب كالنائم ، فاقترب منه وهو يقول بلطف :

ـ محسن ٠٠

ناداه فلم يرد ٠ وكرر النداء ولكنه لم يرد ٠ هزه ليوقظه فمال رأسه ميلة غريبة ٠ عند ذاك لمح المأمور نقطة دم فوق الشومان ٠ نظر نحو زميله بفـزع فرأى أثر الحبـل الجهنمى حول العنق ٠ وزلزل القسم ومن فيه ! ٠

وحدثت سلسلة اجتماعات خطيرة فى المحافظة واتخذت قرارات

هامة وعاجلة ، واستدعى المدير العام جميع معاونيه وقال لهم بقوة وحماس :

ـ سنعلن حربا لا هوادة فيها حتى يقبض على المجرم ٠٠

وتفكر قليلا ثم استطرد :

ـ هنالك شيء لا يقل خطورة عن المجرم نفسه ، وهو الذعر الذى اجتاح الناس ٠

ـ نعم يا فندم !

ـ يجب أن تسير الحياة سيرتها المألوفة وأن يعود الناس الى الاحساس الطيب بالحياة ٠٠

وتجلى التساؤل فى الأعين المستطلعة فقال المدير :

ـ لن تنشر كلمة واحدة عن الموضوع فى الصحف ٠٠

وآنس من العيون فتورا فقال :

ـ الحق أن الخبر يختفى من الدنيا اذا اختفى من الصحف ٠٠

وقلب عينيه فى الوجوه ثم قال :

ـ لن يدرى أحد بشيء ولا سكان العباسية أنفسهم ٠٠

ثم ضرب مكتبه بقبضته وقال :

ـ لا حديث بعد اليوم عن الموت ، يجب أن تسير الحياة سيرتها المألوفة ، وأن يعود الناس الى الاحساس الطيب بالحياة ، ولن نكف عن البحث ٠٠


زينة

ازدحم مدخل العمارة رقم ١١٥ بشارع رمسيس بالمنتظرين أمام أبواب المصاعد ، وهو مدخل لا يخلو من ازدحام كما يجدر بعمارة جميع شققها مؤجرة للشركات · وكان بين المنتظرين ثلاثة أشخاص جاءوا فى وقت واحد على وجه التقريب ، رجلان وفتاة ، وكأكثر الحاضرين لم يكن يعرف أحدهم الآخر · وبطبيعة الحال لم ينتبه أحد الى الرجلين على حين تسللت نظرات الاهتمام الى الفتاة لشبابها وجمالها وأناقتها ، وبينا بدا أحد الرجلين كمن يناقش نفسه مناقشة حادة جعل يقضم ظفره من حين لآخر لاحت فى عينى الآخر نظرة حالمة وحزينة ، وعندما صادفت عيناه الفتاة دبت فيهما حياة متألقة كالزهرة ·

قصد أول الثلاثة الشقة رقم ١٨ بالدور الثالث فمضى الى السكرتارية وحيا السكرتيرة اللطيفة هناك وقال برقة ممزوجة بالثقة :

ـ محمد بدران ··

ولم تكد الفتاة تغيب وراء باب المدير حتى عادت وهى تقول :

ـ تفضل ·

دخل محمد بدران حجرة المدير فمد له هذا يده من وراء مكتبه وهو منهمك فى مكالمة تليفونية ، ثم أشار اليه بالجلوس ، فغاص فى مقعد جلدى كبير أمام المكتب · وبسرعة سحرية سرى فى جلده وأعصابه الهواء المكيف فأنعشه وهدهده وأخذ يجفف عرقه ويرطب لهيب الحر الذى عاناه فى الطريق واختنق به فى المصعد · وسرعان ما وعد نفسه بتركيب جهاز تكييف فى حجرة مكتبه حالما تتحسن الأحوال عما قريب ان شاء الله ، ولو يشاركه فيها الأبناء فى بعض

أوقات المـــذاكرة بل ولا بأس من أن يتحول جزء منهـــا الى مكان لجلوس الزوجة فى أشهر القيظ · وكالعادة انثالت على ذهنه أحلام الثراء بلا تحفظ فأكملت ما ينقص حياته من الرفاهية · شقة جديدة فى حى راق بعيدا عن روض الفرج طبعـــا ، أثاث فاخر ، مطبخ أمريكانى ، بار أمريكانى أيضا ، سخان ، فريجيدير كبير ، سيارة ، شقة دائمة بالاسكندرية للتصييف فى الصيف ولعطلات المواسم فى بقية الفصول · ولسبب ما خطـرت بباله الفتاة الجميلة التى رآها فى مدخل العمارة أمام مصعد · ما أجمل أن « يملك » الانســـان صديقة مثلها : فائقة الجمال حقا · ولجمالها أثر بهيج مثير لأحلام الشباب فى الحب والنشوة الســـامية · ترى أما زال يذكر عهـد الشباب الأول بأحلامه ومثالياته ؟ ! · واذا به يستيقظ على صوت المدير وهو يقول :

ـ كيف حالك يا أستاذ محمد ؟

فخرج من أحلامه قائلا :

ـ بخير ما دمت بخير يا سعادة المدير ··

وضحكا معا بلا مناسبة ظاهرة وان أحنقهُ صـــوته الجهورى ذو النبرة الشديدة والجلجلة ، ثم رفع اليـه عينيه كأنما يقول « فى خدمتك يا فندم » فقال المدير الذى اعتمد مكتبه بمرفقيه :

ـ كيف الأحوال ؟

ـ ما شية ! ، ليس فى الرأس الا مشروعات ··

ـ كل شىء بأوانه ، أراهن على أنك ســـتحقق مشروعاتك ، أنا خبير بالرجال ··

فابتسم قائلا :

ـ لنا زميـــل لعلك تعرفه ، كنا نعمـــل منذ ثلاثة أعوام فى جريدة واحدة بثلاثين جنيها ، هل تصدق أنه يعمل اليوم بثلاثمائة جنيه ؟

ـ ستجيء فرصتك أيضا (ثم وهو يضحك) وأنا ماذا كنت منذ خمسة أعوام ؟

ـ لكنك رجل أعمال ٠٠!

وضحكا مرة أخرى ، وإذا بوجه المدير يسـترد هيئته الجادة ويقول داخلا فى موضوعه :

ـ أنا ارتأيت طريقة ستوفر عليك تعبا كثيرا ٠٠

ورمقه محمد بقلق كأنه خاف أن يعقب التوفير فى التعب توفير فى الأجر ، ثم قال بعجلة :

ـ أنا لا يهمنى التعب ، الى بنقط الموضـوع وسوف تقرأ مقالا لن يشك قارئه فى أنه بقلم أخصائى من العلماء !

فلم يبد على المدير أنه اكترث لاعتراضـه ، وأخرج من درج مكتبه مقالة مسـطورة على فرخين من الورق ، فتساءل محمد فى شبه انزعاج :

ـ كتبتها كلها ؟

ـ لا ينقصها الا امضاؤك !

فتناولها الآخر فى فتور وهو يغمغم :

ـ لكن ٠٠

فقاطعه قائلا بلهجة مرحة :

ـ اقرأ ولا تخف ، متى وجدتنى بخيلا يا جاحد ! ؟

فاسترد شيئا من طمأنينته وهو يقول كالمحتج :

ـ ولكنك ستعودنى على الكسل ٠٠!

وراح يقرأ : « عزيزى القارىء ، ماذا تعرف عن العقار الجديد « س ٠ أ ٠ ب » ؟ لعلك تسمع عنه لأول مرة ، ولم تسـمع بطبيعة الحال عن الثورة العلمية التى أحدثها فى أمم الشمال بصفة خاصة وفى القارة الأوربية بصفة عامة ؟ ٠ فى الأسـطر القادمة ستعرف كل شىء عنه ، مؤيد بأقوال جمهرة من كبار العلماء ٠ ولمـا كانت

مجلتنا علمية قبل كل شيء فانا نرجو الا يطوح الخيال بأحد قرائها ، فان اعتقادنا الا قوة تستطيع أن تعيد الشباب اذا ولى ، ولكن عقارا يؤخر الشيخوخة عشرة أو خمسة عشر عاما ليس مما يستهان به ·· » :

واستمر فى قراءة المقال والمدير يتابعه فى أهتمام لا يخلو من سخرية ، حتى أتمه ، وتبادلا النظر فى صمت مليا ثم سأله المدير :

ـ ما رأيك ؟

ـ مدهش ، ثمة أخطاء فى اللغة أو النحو ستصحح بطبيعة الحال ، ولكنه مقال هام ومثير ··

ـ يجب نشره فى صفحة مهمة ··

فقال محمد بدران بشيء من المكر :

ـ أنت تعرفنى من قديم ، ولكن هناك معلومات قد تحتاج الى تحقيق علمى أو الى تعديل على الاقل ، ان مجلتنا ذات صفة علمية معترف بها !

فقال المدير ببرود :

ـ لن أزيد مليما على المبلغ المتفق عليه !

ـ لا اقصد هذا ··

ـ بل تقصده ! لا تكن طماعا ، ستأخذ المجلة أجرة اعلان ممتاز جدا · وستأخذ أنت مكافأتك كما اتفقنا فلا داعى للمشاغبة !

فدارى محمد هزيمته الخفيفة بضحكة وقال بحرارة زائفة :

ـ أخاف أن يؤدى الافراط فى تناول العقار الى ··

ـ ما اجمل تلاوتك للآيات الانسانية ! ، لكننى أزعم أننى انسان اكثر منك ، هذا العقار اذا لم يفد فلن يضر ، وهو مفيد قطعا ، والانسان يعيش على الأوهام ويسعد بها ··

وتناول من جيبه مظروفا صغيرا ، ووضعه على المكتب أمام

الأستاذ محمد ، وكان هذا يعرفه كما يعرف وجه طفله ، فأخذه وهو يبتسم قائلا :

ـ الف شكر يا اكسلانس ، ربنا ما يحرمنى منك ••

ـ ولا منك يا أستاذ محمد ••

وقاما فى وقت واحد فتصافحا ، ثم ذهب • وشملته حركة سريعة ، أشبه بالاندفاع ، وهى طابعه فى السير ، وكان عليه أن يذهب الى المجلة دون ابطاء • ولم يكن فى ذهنه الا المشكلات الخاصة بالمجلة التى عليه أن يحلها قبل هبوط الليل • فى زمن بعيد نسبيا كان يفكر طويلا بعد تناول مثل هذا المظروف • على الأقل كان يقارن بدهشة بين حاله حين تخرجه فى الجامعة والتحاقه بالعمل مخمورا بأسمى الآمال ، وبين حاله التى صار اليها حين لم يعد لشىء قيمة الا السيارة وجهاز التكييف وتعليم الأولاد فى الكلية الأمريكية ••

★★★

وقصدت الفتاة الشقة رقم ٣٣ بالدور الخامس • سارت بقامتها الرشيقة ووجهها الجميل ، وعينيها اللوزيتين اللتين تشعان حيوية حتى انتهت الى مكتب السكرتير ، فقام بحماس وصافحها بحرارة ثم أشار اليها بالجلوس وهو يقول :

ـ المدير مشغول ، خمس دقائق ، كيف حالك ؟

جلست وهى تبتسم فى تحفظ ماكر ، وتشاغلت عن الشاب المحدق فيها بالنظر الى الحجرة البديعة المعدة لاستقبال أهل الأهمية والمال وعلق بصرها بلوحة من الفن الحديث لم تميز بوضوح من أشيائها الا تفاحة استقرت فى مكان غمازتها عين بشرية هالعة على حين اكتنفتها خطوط وألوان فاقعة وأجزاء متناثرة من أعضاء الجسم الانسانى ، وبصفة عامة خيل اليها أنها ترى ركن حجرة ـ كانت مأهولة بالبشر ـ اثر زلزال عنيف مدمر ، استردت عينيها



وهى ترفع حاجبيها المقرونين فى شبه احتجاج ساخر فرأت الشاب وهو يشير الى الكرسى الجالس عليه ويقول باسما :

ـ ستجلسين هنا بعد أيام ..

ـ متى تسافر الى ألمانيا ؟

ـ فى نهاية الأسبوع على الأكثر ، ولكن متى أراك ثانية ؟

ودق جرس التليفون الخاص بالمدير فرفع الشاب السماعة لحظة ، ثم أعادها ومضى الى الحجرة ، وما لبث أن خرج مصحوبا بخواجا طاعن فى السن فأوصله حتى الباب وعاد الى الفتاة وهو يقول :

ـ تفضلى يا آنسة زينب ..

وهى تمر أمامه فى طريقها الى الحجرة همس فى أذنها :

ـ أظن من الممكن أن نتقابل الليلة .. ؟

فظلت تنظر فيما أمامها وان وشى عارضها بابتسامة ، حتى غيبها باب الحجرة . تقدم المدير ليلاقيها فى المنتصف ، بقامته المترهلة ، وصلعته الوضيئة ، وانحنى نحوها بوجهه المجدور ، يتقدمه أنف كالكف المبسوطة بين هالتين من سوالف بيضاء ، فتناول يدها ، وضغط عليها بحنان مريب ومضى بها حتى أجلسها على المقعد الوثير أمام المكتب ، ثم جلس على كرسيه وعيناه لا تتحولان عن وجهها :

ـ خطوة عزيزة يا زوزو ، كيف حال والدتك وأخواتك ؟

وكانت رغم مطاوعة الأمور تجد قلقا ، واحساسا كأنه التقزز ، لكنها ابتسمت الى عينيه المكللتين بحاجبين أشيبين ، عينيه الحادتين رغم الكبر ، وقاومت النفور المستقر فى شعورها ، والذى جاء معها فى الطريق بل من البيت ، رغم محاولاتها القوية فى مغالبته بالأحلام الخيالية المتألقة كالماس .

ـ ستتشرفين السكرتارية فى نهاية الأسبوع ..

اتسعت الابتسـامة المغتصبة من شـفتيها ، فتحركت قسمات الرجل فى نشوة كالطرب وقال بحرارة :

ـ أنت ضوء الحياة يتسلل الى قلبى المظلم من جديد ، وسوف ينعكس على حياتك بالسعادة ٠٠

ذكرها هذا بما رددته جدران بيتها الصـماء فى غير حياء ، وبأمها التى تبدو أحيانا كنمرة متوثبة وأن تكن تنقلب قطة مستكينة عندما تندى جفونها بدمعة ما ٠ وغمغمت فى حرج :

ـ أرجو أن تجدنى عند حسن ظنك ٠٠

ابتسم ابتسامة اقشعر لها بدنها ، فندمت على ما فرط منهـا دون تدبر ٠ واذا به يتساءل :

ـ وقريبك ؟

فقالت بامتعاض خفى :

ـ انتهى الأمر ، فسخت الخطبة ٠٠

ـ ماذا قلتم ؟

ـ لم تعوزنا المبررات الوجيهة ٠٠

فقال بنبرة مبتهجة :

ـ لن تندمى على فات ، أمك حكيمة ، وأنت كذلك ، ان متـاعب الحيـاة لا تفض كما يزعم الحمقى فى الصـحف ، ولكنها تفض بالارادة الحية ، ارادة شخص ذكى مثلك ٠٠

ما أبشع خجلها ، أو ما أبشعه فى بعض الأحيان على الأقل ٠ لكنها لم تندم على فسـخ الخطبة ٠٠ لم تعدها بحياة تستحق هذا الاسـم ، وتوعدت أسرتها بمتاعب جـديدة ٠ وهى لم تكن تحب قريبها ٠ الآن لن يفصل بينها وبين من تحب شىء ، حتى لو علم بحقيقة ما تمضى اليه اذ من حسن الحظ أن الطيور على أشكالها تقع ٠ وسألته باستهانة :

ـ ماذا يزعم الحمقى فى الصحف ؟

أحاديث كألف ليلة وليلة عن اصـــلاح المجتمع والكون ، ماذا تفيدين من ذلك أنت ؟!

فرفعت كتفيها في استهزاء ، فعاد يقول :

ــ لولا الدين لتزوجت منك بلا تردد ..

فغضت البصر حتى شعر بأنه ينبغى أن يبرر موقفه فقال :

ــ ان تغيير الدين كفيل بالقضاء على مركزى ، وبالتالى على الوسائل التى يمكن أن أسعدك بها ..

فقالت بارتياح خفى :

ــ هذا مفهوم وواضح ..

فقال بحماس :

ــ ولو هيأت لك فيللا كاملة لأحرجتك لكنك ستكونين السكرتيرة ، شىء عادى وطبيعى ، وستكون متع الدنيا بين يديك ، صـدقينى ان المال هو سر بهجة الحياة ، وانى مصمم على جعلك أسـعد مخلوقة فى هذا الوجود ..

ــ متشكرة جدا ..

فهز رأسه بارتياح وقال :

ــ سأرسـلك الى حمدى رجب رئيس الادارة ليمتحنك ، مجـرد اجراء شكلى كى تسير الأمور فى مجراها الطبيعى ..

ــ متشكرة جدا ..

ــ وخبرى والدتك بأن تستعد للانتقال الى مصر الجديدة ..

ــ سيجىء هذا فى وقته ..

وندمت مرة أخرى على ما أفلت منهـــا من قول . باتت سريعة الغضب حقا ، وان ظل وجهها باسما هادئا . وأوشكت أن تغضب على طموحها المجنون نفسه ..

وقامت وهى تقول :

ـ سأذهب الى مدير الادارة ٠

فقام أيضا ومضى حول مكتبه ، وسارت نحو الباب فتبعها وهو يرنو الى رسم ظهرها البديع ، حتى وقفا وجها لوجه وراء الباب ، تناول يدها وانحنى كأنما ليقبلها ولكنه مد وجهه عند منتصف المسافة الى خدها فلثمه ٠ ولبث دانى الوجه من وجهها ٠ وأنفاسه ترعش الأهداب المسدلة من كلفة الفستان أعلى الصدر ، ثم تساءل برغبة محمومة :

ـ أما من قبلة ؟

فأومأت الى الأحمر فى شفتيها وتساءلت :

ـ و ٠٠ وهذا ؟

ـ ولو !

فلثمت جانب فيه ، ثم استدارت نحو الباب ٠٠

★★★

وقصد ثالث الثلاثة الشقة رقم ٥٠ بالدور الثامن ٠ كانت صورة الفتاة الجميلة ما تزال تعايش خياله معايشة لطيفة ، مخالطة أفكاره ومشاعره وأنفاسه ، وكان يتصور فى نشاط جار خلاق الحياة العريضة التى يمكن أن يصنعها ذلك المثال من الجمال الحى ، لكنها انطوت فى ركن مجهول أمام السكرتيرة الدميمة الذكية التى ابتسمت لاستقباله ٠ حياها برقة وهز رأسه هزة المتسائل وهو ينظر نحو باب المدير فقالت على الفور :

ـ انه ينتظرك يا أستاذ ٠٠

ودخل فقام المدير باسم الوجه وهو يقول :

ـ أهلا أستاذ وديع ، جئت فى وقتك ٠٠!

وتصافحا ، ثم جلس وديع ، أما المدير فمال نحو صوان قريب

فمد يده داخله مليا ، ثم قدم الى الأستاذ لفافة ماسية أدرك هـــذا لأول مرة أنها « قرش » ، ثم قال :

ـ هدية لك ! ، لم أعرف ألا مصادفة أنك من أهل الكيف ! •

وابتسم وديع فى شىء من الارتباك وهو يدســـها فى جيبه ، وجلس المدير وهو يقول :

ـ قرأت القصـــة ، جميلة ، نعـم جميلة ، لى عليهـــا بعض الملحوظات سأحدثك عنها عندما يبدأ الاجتماع (ونظر فى الساعة) •• واذا كان لدى الآخرين ملاحظـــات أخرى فرجائى أن تفرغ من اعادة كتابتها قبل نهاية الشهر ، حتى يجد كاتب السيناريو مهلة لكتابته ، وحتى ندخل الاستديو فى الميعاد المتفق عليه ••

القصة تتغير ولكن قصـــة القصة ، قصـــة جميع القصص ، واحدة ، هذه هى المسألة التى يتكرر وقوعهـــا عند مناقشة أى من قصصـــه ، قصـــتك جميلة يا أســـتاذ •• ولكن ! • هى جميلة ولكن يجب أن تؤلفها من جديد • وتساءل من خلال تنهدة لم تســـمع عن ذلك الركن من الدنيا الذى تجـــرى فيه الأمور على طبيعتها وتنطلق الطيور المغردة ، بلا خوف ولا جهل ولا طغيان ، ولم يداخله شـــك فى أنه سيجد هنالك الفتاة الجميلة التى عايشت خيـــاله حتى أثملته • وتحرك حركة لا معنى لها وقال على سبيل الدفاع عن النفس :

ـ يا أستاذ مجدى ، أنك سألتنى ان كان عندى قصة فقدمتها ثم أخبرتنى أنك قبلتها ، أليس كذلك ؟

ـ طبعا ، لكن القصـــة ليست الا مشروعا ، وعلينا أن نبدأ من أساس متين حتى نضمن انتاج فيلم نظيف ، شركتى عنوان الانتـــاج النظيف ، ألا تعـــلم أنهم يطلقون على اســـم المنتج المجنون لهـــذا السبب ؟ !

كان يـــتابع صوته بغيظ مكتوم ، وينظر بغرابة الى وجهـــه المطل

عليه من وراء مكتبه متضــمنا جميع آيات الصـحة والعافيـة والتحــدى ، كانت ملامحه جميعــا تتعلق بالتحـدى ، عينــاه الجاحظتان ، أنفه المدبب ، فكاه العريضان القويان ، وكانت عنـايته بالأناقة فائقة الحــد ، ورائحة المسك تفوح منــه ، رغم علم جميـع المقربين اليه من أنه يـتدهن بها لرأى قرأه عن اثارتها فى أحد الكتب الجنسية · هذا المدير الكبير الذى قضى زهرة عمره مندوبا لشركة تأمين ، وما زال يباهى بطلاقته فى الفرنسـية ويستعمل منها الألفاظ والعبارات لمناسـبة ولغير مناسـبة ، الى درايته بأشياء كثيرة فى الحياة العملية ، وان يكن الشىء الوحيد الذى لم يفقه فيه حرفا هو الفن بصفة عامة ، والقصة بصفة خاصة ، وتساءل وديع عن اللعنة الغريبة التى قضت عليه طوال حياته الفنيه بأن يقف موقف المستأذن بفنه أمام الناس لا يربطهم سبب واحد بهذا الفن · وتنهد من الأعماق تنهيدة خفية حارة كمعركة فى أعماق المحيط ··

وفى تمام السادسة مساء جاء المخرج الأستاذ محمد طنطاوى ، وتبعه بعد قليل الموزع مسيو دزرائيلى ، ثم قامت الحجرة لاستقبال النجمــة عواطف زهـدى · وهلت المرطبات ألوانا وضـــج المكان بالأحاديث والنكات والتعليقات ، على حين انكمش الأســتاذ وديع فى كرسيه ينتظر أن تبدأ محكمة التفتيش عملها · وجعل يسترق الى وجوههم النظرات ·

وتساءل متى تتقوض سيطرة الطغاة · متى يمكن أن يفكر محمد طنطاوى كانسان ؟ · متى يحل فى رأس مسيو دزرائيلى شىء غير الأرقام والنقود ؟ · متى تقلع عواطف زهدى عن العادات المتأصلة التى اكتسبتها فى بيت الهوى التى انتشلت منه الى عالم الفن ؟· متى يكف مجدى السيد عن انتاج أفلام كعربون لعشق جديد ؟· متى تقف هذه العوامل كلها عن التدخل فى فبركة القصص ؟ ·· ووجد نفسه

تستعيد صورة الفتاة الجميلة التى عايشته منذ قليل ، وحلم مرة أخرى بالحياة المريضة التى يمكن أن يصنعها جمالها الحى ٠

وارتفع صوت المدير وهو يقول :

ـ هه ، لندخل فى الموضوع ، الأستاذ وديع عبد الرازق هنا ليسمع آراءكم فى قصته ، فيجب أن ننتهى الليلة من المناقشة حتى يشرع فورا فى تعديل القصة ٠٠

واتجهت الأنظار نحو مسيو دزرائيلى باعتباره رأس المال وكان ضائعا فى المقعد الضخم لقصر قامته وضآلة جسمه فتزحزح الى الأمام حتى استوى على طرف المقعد وقال باهتمام :

ـ القصة تبدأ ساخنة ولكنها تنتهى باردة ، هذا شىء خطير جدا ٠٠

تركزت عليه الأبصار فى انتباه واحترام ، وتجلت مقدمات الموافقة دون كلام ، ولما هم المخرج بفتح فيه قاطعه الخواجا قائلا :

ـ لا مؤاخذة يا محمد ، أنا عندى موعد ولا بد أن أذهب حالا فاتركنى حتى أتم كلامى ، قلت ساخنة وباردة ، وشخصية البطل غير محبوبة لأنه غنى ، والمتفرجون فى بولاق والسيدة زينب لا يحبون الأبطال الأغنياء ، ولا مجال فى القصة للضحك ، الجمهور يحب الضحك ، وجو الضحك فرصة لخلق رقصة أو أغنية ، ابحثوا هذه النقط ، واذا تعذر تعديل القصة فعندى لكم سيناريو جاهز قابل للتصوير فورا ٠٠

وتساءل وديع بحدة :

ـ سيناريو ؟!

فابتسم اليه ملاطفا وقال :

ـ أنا وكيل توزيع أفلام أجنبية ، وعادة أستحضر جميع السيناريوهات لأختار على أساسها الأفلام التى أوزعها ، وأشترى ما أشاء من الأفلام ، ولكنى أستبقى سيناريوهات الأفلام الأخرى حتى

تسعفنى فى مثل هذه الزنقة ، ولن يضيع حقك كمؤلف فسيكتب اسمك على القصة الجديدة ، ولن تتهم بالسرقة لأن الفيلم المصور عن هذا السيناريو لن يرد الى الشرق الأوسط ، فكروا فيما قلت ، وسأتصل تليفونيا بك يا مجدى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل لأعرف النتيجة ..

ووقف رافعا يده بالتحية فوقفت الحجرة ، ثم ذهب ..

وتغيرت تعبيرات الوجوه بعد ذهابه فانطلقت على سجيتها مما دل على أنه كان ثمة توتر غير ملموس ثم زال ، وقلب مجدى ناظريه فى الوجوه وهو يقول بنبرة ملؤها التشجيع :

– لا تهتموا بما قال ، أنا عارفه ، كلامه كثير لكنه يقتنع فى النهاية برأيى ، والحق أن هذه القصة صالحة تماما لعواطف ..

فقالت عواطف :

– السيناريو الذى أشار اليه لخصه لى بالتليفون وهو غير مناسب لى على أى حال ، أنا لا أصلح لتمثيل الزوجة الخائنة ، وسيغضب هذا غالبية جمهورى ..

فقال محمد طنطاوى وهو يشعل سيجارة :

– فلنتكلم فى قصة الأستاذ وديع ..

– خبرنى عن رأيك فيها ؟

– أنا أوافق دزرائيلى على أنها تنقصها الفكاهة .

فقال وديع بحرارة :

– الموضوع جاد ، اذا أردت اللمسات الفكاهية هنا أو هناك فهذه أمرها غير عسير وهو يجىء فى العلاج دون افساد الفكرة الأصلية .

– لا أقصد هذا ، أنا أريد خلق شخصية مضحكة لتلعب دورها فى الفيلم كله ، كتابع أو صديق للبطل ..

فاستمات وديع فى الدفاع قائلا :

ـ لكنها تبدو شـــخصية ملزوقة ، وقد تكررت فى أفلامنا حتى باخت ٠٠

فقالت عواطف :

ـ بالعكس هذه الشخصية تنجح دائما ، ودورها مناســب لحمودة ٠

ولم يكن حمودة الا أخاها ، ولذلك لم يجد وديع فى المعارضة جدوى فعدل عنها قائلا :

ـ سأجد لها مكانا فى القصة ٠٠

فعاد المخرج يقول :

ـ وسخن النهاية أكثر ، انها ليست باردة كما يقول دزرائيلى ولكن تسخينها لا بأس به ، اختمها بمعركة بين البطل وغريمه ٠٠

ـ لا ٠٠ لا ، هذه نهاية لا تناسب موضوعا نفسيا ، ولا تناسب موضوعنا بحال ، فكر فى هذا من فضلك ، انها نهاية مناسبة لفيلم رعاة بقر أو ما يشابهه ٠٠

ـ المعركة لعبة ناجحة ، وأنا متخصص فى المعارك ٠٠

فقال مجدى ضاحكا :

ـ يا أستاذ وديع لا تظلم مخرجنا ، كيف تحرمه فى فيلم طويل ولو من معركة واحـــدة ؟ ، أتريده أن يضرب المتفرجين أو يضرب المنتج ٠٠!

وضجت الحجرة بالضـــحك عدا وديع الذى مضى يجتر غمــه صامتا ، واذا بعواطف تقول :

ـ ودورى مناسب بلا شـــك ولكنه فى النصف الأول من الفيلم سلبى ٠٠

فقال وديع اليائس من تتابع الضربات :

ـ دورك فى الأول هو دور امرأة عادية ، نموذج متـــكرر من نسائنا فى البيت ولكن دورك الحقيقى يبدأ بزواجك من البطل ٠٠

ـ ليس هذا بدور بطلة فيلم ..

ـ ولكن هكذا القصة تسير ..

ـ ولو !

وتســـاءل ترى ألا يمكن أن يجد عملا آخر غير التأليف ؟ . وتأوه دون صوت . وعند ذاك قال مجدى :

ـ هذه ملاحظات بسيطة لن تغير جوهر القصـــة ، وطبعا أنت موافق يا أستاذ وديع ؟!

ـ الحق أنى غير موافق ..

فضحك ضحكة مترعة بصحة وعافية وقال :

ـ هكذا يكون موقفك كل مرة ، وتستمر المناقشات حتى منتصف الليل ، ثم تجبر بخاطرنا ..

وقال المخرج :

ـ الأســـتاذ وديع عنيد ولكنه يسايرنا فى النهاية ، وفنـــان السينما يجب أن تذوب شخصيته فى المجموع !

وندت عن مجدى آهة كأنما تذكر فجأة شيئا ذا بال ، واستخرج من درج مكتبه شيكا وهو يقول :

ـ القسط الثانى حل منذ أسبوعين ، لعن الله المشاغل ..

ومد له يده فتناوله وهو يستشعر أول نسمة باردة فى هـــذه الجلسة الجهنمية . وبدا منه أنه يســـتعد لمواصلة المرافعة ، ولكن مجدى قال :

ـ ممكن أن نلخص ما تم الاتفاق عليه بما يأتى : خلق شخصية مضحكة لحمودة ، تسخين فى النهاية بمعركة ، خلق حوادث مهمة لعواطف قبل الزواج من البطل ..

ثم ضحك ضحكة عالية وهو يقول :

ـ ولكن لا نريد حوادث قبل زواجها من المنتج ..

وضجوا جميعا بالضحك ، واستأذن المخرج ووديع فذهبا معا .

ودعاه المخرج الى سيارته الكبيرة ليوصله الى محطة الترولل باس فانسابت بهما السيارة كالعروس ، وقال المخرج :

ـ مطلوب منى قصة لشركة أبو الهول سأخرجها بعد هذا الفيلم مباشرة ، فهل عندك فكرة ؟

عذاب جديد فى سبيل رزق جديد ، كم يسره هـــذا الطلب وكم يحزنه ! ، وفكر مليا ثم قال متسائلا :

ـ ما رأيك فى موضوع عن المال ؟

ـ قصة بوليسية ؟

ـ كلا ، انى أود أن أكتب عن المال باعتباره غولا مخيفا يلتهم القيم الجميلة بلا رحمة كالخلق والجمال والروح ..

ففرقع محمد طنطاوى بأصبعيه فرحا وقال بحماس :

ـ اشرع فى كتابتها وقابلنى يوم الجمعة لكتابة العقد . فكرة عظيمة ، وهادفة ، وصـــالحة جدا للاشـــتراك فى جائزة وزارة الثقافة .

زعبلاوي

اقتنعت أخيرا بأن على أن أجد الشيخ زعبلاوى ٠

وكنت قد سمعت باسمه لأول مرة فى أغنية :

الدنيا ما لها يا زعبلاوى   شقلبوا حالها وخلوها ماوى

وكانت أغنية ذائعة على عهد طفولتى فخطر لى يوما أن أسأل أبى عنه كعادة الأطفال فى السؤال عن كل شىء ، سألته :

ـ من هو زعبلاوى يا أبى ؟

فرمقنى بنظرة مترددة كأنما شك فى استعدادى لفهم الجواب ، لكنه قال :

ـ فلتحل بك بركته ، انه ولى صادق من أولياء الله ، وشـــيال الهموم والمتاعب ، ولولاه لمت غما ٠٠

وفى الســـنوات التى تلت ذلك سمعته مرات وهو يثنى أطيب الثناء على الولى الطيب وكراماته ٠

وجرت الأيام فصادفتنى أدواء كثيرة ، وكنت أجـــد لكل داء دواءه بلا عناء وبنفقات فى حـــدود الامكان ، حتى أصابنى الداء الذى لا دواء له عند أحد ، وســـدت فى وجهى الســـبل وطوقنى اليأس ، فخطر ببالى ما سمعته على عهد طفولتى ، وتساءلت لم لا أبحث عن الشيخ زعبلاوى ؟ ! ٠ وذكرت أن أبى قال انه عرفه فى بيت الشيخ قمر بخان جعفر ، وهو شيخ من رجال الدين المشتغلين بالمحاماة الشرعية ، فقصـــدت بيته ، وأردت التأكد من أنه ما زال يقيم فيه فسألت بياع فول أســـفل البيت ، فنظر الرجـــل الى باستغراب وقال :

ـ الشـــيخ قمر ! ، ترك الحى من عهد بعيد ، ويقال انه يقيم اليوم بجاردن سيتى ، وأن مكتبه بميدان الأزهار ٠٠

واستدللت على عنوان مكتبه بدفتر التليفون ، وذهبت اليه من توى فى عمارة الغرفة التجارية ، واستأذنت ، ثم دخلت الحجـرة على أثر خروج سيدة حسناء منها أسكرتنى برائحة زكية كالسحر المخدر ، استقبلنى باسما ، وأشار الى بالجلوس فجلست على مقعـد جلدى فاخر ، وأحسست قدماى رغم غلظ النعل بغزارة السـجادة ونفاستها • وكان الرجل يرتدى البدلة العصرية ويدخن السيجار ، ويجلس جلسة المعتد بنفسـه وماله ، وينظر الى بترحاب حار لم أشك معـه فى أنه يظننى زبونا ، فركبنى الحرج والضـيق لتطفلى على وقته الثمين ، فقال يستحثنى على الكلام :

ـ أهلا وسهلا ؟

فقلت لأضع حدا لموقفى الحرج :

ـ أنا ابن صديقك القديم الشيخ على التطاوى !

فمرت بنظرته رنوة فتور ، لا الفتور كله لأنه لم يفقد الأمل كله وقال :

ـ الله يرحمه كان رجلا طيبا ••

فتشـجعت على البقاء بقوة الألم الذى سـاقنى الى المجىء وقلت :

ـ كان حـدثنى عن ولى طيب يدعى زعبلاوى ـ قابله عنـد فضيلتكم ، انى يا سيدى أريده ان كان ما يزال على قيد الحياة •

اسـتقر الفتور فى العينين ، ولم اكن لأدهش لو طردنى أنا وذكرى أبى معا ، وقال بلهجة من صمم على انهاء الحديث :

ـ كان ذلك فى الزمان الأول ، وما أكاد أذكره اليوم ••

فقمت لأطمئنه الى اعتزامى الذهاب وأنا أسأله :

ـ أكان وليا حقا ؟

ـ كنا نراه معجزة ••

فسألته وأنا أتحرك لأزيد من طمأنينته :

ـ وأين يمكن أن أجده اليوم ؟

ـ مدى علمي أنه كان يقيم بربع البرجاوى بالأزهر ٠٠

وأكب على أوراق مكتبه بحركة قاطعة بأنه لن يفتح فاه مرة أخرى فحنيت رأسى شكرا واعتذرت عن ازعاجه مرات ، وغادرت مكتبه وأنا لا أسمع للدنيا صوتا من وش الخجل فى رأسى :

وذهبت الى ربع البرجاوى الذى يقوم فى حى ماهول لحد الاكتظاظ ، فوجدته تآكل من القدم حتى لم يبق منه الا واجهة أثرية وحوش استعمل رغم الحراسة الاسمية مزبلة ٠ وكان له مدخل مسقوف اتخذه رجل محلا لبيع الكتب القديمة من دينية وصوفية ، وكان قميئا ضئيلا كأنه مقدمة رجل ، فلما سألته عن زعبلاوى نظر الى بعينين ملتهبتين ضيقتين وقال باستغراب :

ـ زعبلاوى ! ، يا سلام ! ، والله زمان ، كان يقيم فى هذا الربع حقا عندما كان صالحا للاقامة ، وكان يجلس عندى كثيرا فيحدثنى عن الأيام الخالية ، وأتبرك بنفحاته ، ولكن أين زعبلاوى اليوم ؟ ! ٠

وهز كتفيه فى أسى ، وسرعان ما تركنى لزبون قادم ٠ ورحت أسأل أصحاب الدكاكين المنتشرة فى الحى ، فاتضح أن عددا وافرا منهم لم يسمع عنه ، وآخرين تحسروا على أيامه الحلوة وان جهلوا مكانه ، والبعض سخر منه بلا حيطة ونعتوه بالدجل ونصحونى أن أعرض نفسى على دكتور كأنى لم أفعل ٠ ولم أجد بدا من العودة الى بيتى يائسا ٠

ومضت الأيام مثل عكارة الجو ، واشتد بى الألم ، فأيقنت بأننى لن أصبر على هذه الحال طويلا ، وعدت أتساءل عن زعبلاوى وأتعلق بالآمال التى بعثها اسمه القديم فى نفسى ٠ عند ذاك خطرت لى فكرة وهى أن أقصد شيخ حارة الحى ، والحق أنى عجبت كيف

لم أفكر فى هذا من أول الأمر • وكان مكتبه عبارة عن دكان صغير غير أن به مكتبا وتليفونا •• وكان يجلس الى مكتبه مرتديا جاكتة فوق جلباب مقلم ، ولم يقطع دخولى حـــديثه مع رجل يجلس الى جانبه ، فوقفت أنتظر حتى انصرف الرجل ، ثم نظر الى بدوره ، فقلت أفض مغاليقه بالقواعد المتبعة ، فسرعان ما جرت البشاشـــة فى وجهـــه ، ودعانى الى الجلوس وهو يســـألنى عن مطلبى ، فقلت :

ـ اننى فى حاجة الى الشيخ زعبلاوى ••

فرمقنى بدهشة كما رمقنى السابقون من قبل وابتسم عن أسنان مذهبة وهو يقول :

ـ على أى حال فهو حى لم يمت ، ولكن لا مسكن له وهذا هو الخازوق ، وربما صادفته وأنت خارج من هنا على غيـر ميعاد ، وربما قضيت الأيام والشهور بحثا عنه دون جدوى ••

ـ حتى أنت لا تستطيع أن تجده !

ـ حتى أنا ! ، انه رجل يحير العقل ، ولكن احمد ربنا على أنه ما زال حيا ••

ونظر الى مليا ثم تمتم :

ـ الظاهر أن حالتك شديدة ••

ـ جدا ••

ـ كان الله فى عونك ، لكن لم لا تستعين بالعقل !

وبسط ورقة على المكتب ومضى يخطط عليها بسرعة ومهارة غير متوقعتين حتى رسم للحى خريطة شاملة أحياءه وحواريه وأزقته وميادينه ، نظر اليها باعجاب ثم قال :

ـ هذه مساكن ، وهنا حى العطارين ، وحى النحاسين ، خان الخليلى ، القسم والمطافىء • الرسم خير مرشد ، وخذ بالك من المقاهى وحلقات الذكر والمســـاجد والزوايا والبـــاب الأخضر فقد

يندس بين الشحاذين فلا يميز منهم ، أنا فى الواقع لم أره من سنوات ، وشغلتنى عنه شواغل الدنيا ، وقد أعادنى سؤالك عنه الى أجمل عهود الشباب ٠٠

وجعلت أنظر فى الخريطة بحيرة ، ودق جرس التليفون فرفع السماعة وهو يقول لى بأريحية :

ـ خذها ، ونحن فى خدمتك ٠٠

غادرته وأنا أطوى الخريطة ، ورحت أقطع الحى ، من ميدان الى شارع الى عطفة ، وأنا أسأل من آنس فيه الماما بالمكان ، حتى قال لى كواء بلدى :

ـ اذهب الى حسنين الخطاط بأم الغلام فانه كان صديقه ٠٠

وذهبت الى أم الغلام ٠ وجدت عم حسنين يعمل فى دكان ضيق عميق الطول ، ملىء باللوحات وحقائق الألوان ، وتنبعث من أركانه رائحة غريبة هى خليط من رائحة الغراء والعطر ٠ وكان عم حسنين متربعا فوق فروة أمام لوحة مسنودة الى الجدار قد نقش فى وسطها باللون الفضى اسم الله ٠ وكان مكبا على زخرفة الحروف بعناية تستحق الاحترام فوقفت وراءه متحرجا من ازعاجه أو قطع فيض الالهام عن يده المنسجمة فى ملكوتها ، وطال انتظارى واشفاقى ، واذا به يتساءل فى لطف بلدى :

ـ نعم ٠٠

أدركت أنه كان على علم بوجودى فعرفته بنفسى وقلت :

ـ قيل لى ان الشيخ زعبلاوى صديقك وأنا أبحث عنه ٠٠

كفت يده عن العمل وتفحصنى متعجبا ثم قال بنبرة تنهدية :

ـ زعبلاوى ! ٠ يا سبحان الله !

فتساءلت بلهفة :

ـ هو صديقك ، أليس كذلك ؟

ـ كان يا ما كان ، الرجـــل اللغز ! ، يقبل عليك حتى يظنوه قريبك ، ويختفى فكأنه ما كان ، لكن لا لوم على الأولياء ٠٠

نطفأ الأمل كما ينطفىء المصـــباح بغتة لانقطاع التيار ، وقال الرجل :

ـ لازمنى عهدا حتى خلت أننى أرسمه فيما أرسم ولكن أين هو اليوم ؟

ـ لعله ما زال حيا ٠٠

ـ هو حى بلا ريب ، وكان له ذوق لا يعلى عليـــه ، وبفضـــله صنعت أجمل لوحاتى ٠٠

فقلت بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل :

ـ يعلم الله أننى فى مسيس الحاجة اليـــه وأنت أدرى بالمتاعب التى يقصد من أجلها !

ثم وهو يبتسم مشرقا :

ـ نعم ٠٠ نعم ، شـــفاك الله ، والحق أنه رجل كما يقـــال عنه وأكثر ٠٠

واقتلعت قدمى وأنا أصـــافحه ثم ذهبت ٠ ومضيت أشرق فى الحى وأغرب ســـائلا عنه من آنس فيـــه طول عمر أو خبرة حتى أخبرنى بياع ترمس بأنه قابله فى بيت الشيخ جاد الملحن المعـــروف منذ زمن وجيز ٠ وذهبت الى بيت الموسيقار بالتمبكشية ، ووجدته فى حجرة بلدية ، أنيقة ، تتردد فى جنباتها أنفاس التاريخ ، وكان يجلس على كنبة وعوده الشـــهير منطرح الى جانبـه منطويا على أجمل أنغام عصرنا ، على حين ورد من الداخل صـــوت هاون ولغط صغار ٠ وحالما سلمت وقدمت نفسى أشـــعرنى بحلاوة اســـتقباله وانطلاقه على سجيته بأننى فى بيتى ، ولم يســـألنى عما جاء بى سواء بالكلام أو الاشارة ولم أشعر بأنه يدارى السؤال أو يضمره

حتى عجبت للطفه وانسانيته ، وقلت مستبشرا خيرا :

ــ يا شيخ جاد ، أنا من عشاق فنك ، طالما طربت له فى أفواه المطربات والمطربين ..

فقال باسما :

ــ تشكر ..

فقلت فى حياء :

ــ لا مؤاخذة على ازعاجك ، قيل لى ان زعبلاوى صديقك وأنا فى أشد الحاجة اليه ..

فقطب فى اهتمام وقال :

ــ زعبلاوى ! ، أنت فى حاجة اليه ؟ ، الله معك ، ترى أين أنت يا زعبلاوى ؟

فتساءلت بلهفة :

ــ ألا يزورك ؟

ــ وفى وجهه جمال لا يمكن أن ينسى .

ــ ولكن أين هو ؟!

ــ زارنى منذ مدة ، قد يحضر الآن ، وقد لا أراه حتى الموت .

فتنهدت بصوت مسموع وتساءلت :

ــ لم كان كذلك ؟

فتناول العود وهو يضحك وقال :

ــ هكذا الأولياء والا ما كانوا أولياء !

ــ ويتعذب عذابى من يريدهم ؟

ــ هذا العذاب من ضمن العلاج !

وأمسك بالريشة وراح يعابث الأوتار فينطقها نغما عذبا ، فتابعته شارد اللب ثم قلت وكأننى أخاطب نفسى :

ــ اذن ضاعت زيارتى سدى !

فابتسم وهو يلصق خده بجنب العود ، وقال :

ـ الله يسامحك ، أيقال هــذا عن زيارة عرفتنى بك وعرفتـك بى !

فخجلت أيما خجل وقلت معتذرا :

ـ لاتؤاخذنى ، أخرجنى شعور الخيبة عن حدود الادب ٠٠

ـ لا تستسـلم للخيبة ، هــذا الرجـل العجيب يتعب كل من يريده ، كان أمره سـهلا فى الزمان القديم عنـدما كان يقيم فى مكان معروف ، اليوم الدنيا تغيـرت ، وبعد أن كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجـل ، فلم يعد الوصول اليه بالشىء اليسير ، ولكن اصبر وثق بأنك ستصل ٠٠

ورفع رأسـه عن العود ، وانتظم العزف حتى صـار مقدمة موسيقية واضحة ، واذا به يغنى :

أدر ذكـر من أهوى ولو بملامى

فان أحـاديث الحبيب مـدامى

وعلى جمال اللحن والغناء تابعته بقلب غافل مكدود ولمـا فرغ من الأداء قال :

ـ لحنت هذه القصيدة فى ليلة واحدة ، وأذكر أنهـا كانت ليلة عيـد الفطر ، وكان هو ضـيفى طوالها ، وهو الذى اختـار لى القصيدة ، وكان يجلس حينا بمجلسك هـذا ، وحينا يلاعب أولادى كأنه أحدهم ، وكلما غلبنى الفتور أو اسـتعصى على الالهام لكمنى مداعبا فى صدرى وضاحكنى فيجيش قلبى بالنغم وأواصـل العمل حتى اكتمل لى أجمل لحن صنعته ٠٠

فتساءلت فى دهش :

ـ أله فى الطرب ؟

ـ هو الطرب نفسه ، وصوته عند الكلام جميل جـدا ، وما ان تسمعه حتى ترغب فى الغناء ، وتهيج أريحية الخلق فى صدرك ٠٠

– وكيف يشفى من المتاعب التى يعجز عنها البشر ؟

– هذا سره ، ولعلك تظفر به عند اللقاء ٠٠

لكن متى يجىء اللقاء ؟!٠ ولذنا بالصمت فعادت ضوضاء الصغار تملأ الحجرة ٠ ومضى الشيخ فى الغناء مرة أخرى ، وجعل يردد ، ولى نكرها ، فى ألوان من طبقات النغم ومحاسنه حتى رقصت الجدران من سكرة الطرب ، وأعربت عن اعجابى بكل جوارحى فشكرنى بابتسامته العذبة ، ثم قمت مستأذنا فأوصلنى الى الباب الخارجى ، وعندما صافحته قال لى :

– سمعت أنه يتردد هذه الأيام على الحاج ونس الدمنهورى ، ألا تعرفه ؟

فهززت رأسى بالنفى ، وانتفاضة أمل جديد تدب فى قلبى ، فقال :

– هو من الوارثين ، ويزور القاهرة من حين لآخر فينزل فى فندق ما ، ولكنه يسهر كل ليلة فى حانة النجمة بشارع الألفى ٠٠

وانتظرت الليل ثم ذهبت الى حانة النجمة ٠ سألت نادلا عن الحاج ونس فأشار الى ركن شبه منعزل لموقعه وراء عامود مربع ضخم تقوم بأضلعه المرايا فى كل جانب ، وهنالك رأيت رجلا يجلس الى مائدة وحيدا ، وأمامه فوق المائدة زجاجة فارغة الى ثلثها ، وأخرى فارغة تماما وعدا ذلك لا يوجد شىء من مزة أو طعام فأيقنت أننى حيال سكير خطير ٠ وكان يرتدى جلبابا فضفاضا حريريا وعمامة مقلوظة ، ويمد ساقيه حتى أصل العمود ناظرا الى المرآة فى ارتياح وانسجام وقد توردت صفحة وجهه المستدير الوسيم – رغم دنوه من الشيخوخة – بحمرة الخمر ٠ اقتربت منه فى خفة حتى توقفت على مبعدة ذراعين من مجلسه ولكنه لم يلتفت نحوى ولم يبد عليه أنه شعر بوجودى ، فقلت برقة متوددة :



ـ مساء الخير يا سيد ونس ..

فالتفت نحوى بشدة كأنما أيقظه صوتى من سبات ، وحدجنى بنظرة انكار فقدمت اليه شخصى معتذرا عن ازعاجه وهممت بتوضيح السبب الذى جاء بى اليه لكنه قاطعنى بلهجة شبه آمرة وان لم تخلِ من لطف عجيب :

ـ تفضل بالجلوس أولا ، واسكر ثانيا !

ففتحت فمى لأعتذر لكنه وضع أصبعيه فى أذنيه وقال :

ـ ولا كلمة حتى تفعل ما قلت ..

أدركت أننى حيال سكران ذى نزوات فقلت أسايره حتى منتصف الطريق فجلست وابتسمت وقلت :

ـ أرجو أن تسمح لى بسؤال واحد ..

لم يرفع أصبعيه من أذنيه ، وأشار الى الزجاجة وقال :

ـ فى مجلس كمجلسى هذا لا أسمح بأن يتصل بينى وبين أحد كلام ان لم يكن سكران مثلى ، والا خلا المجلس من اللياقة وتعذر فيه التفاهم ..

أفهمته بالاشارة أننى لا أشرب فقال بقلة اكتراث :

ـ هذا شأنك ، وهذا شرطى !

وملأ لى كوبه ، فتناولته فى رضوخ وشربته ، وما ان استقر فى جوفى حتى اشتعل ، فصبرت عليه حتى ألفت عنفه وقلت :

ـ انه لشديد ، وأظن ان لى أن أسألك عن ..

لكنه أعاد أصبعيه الى أذنيه وقال :

ـ لن أصغى لك حتى تسكر ..

وملأ الثانى فنظرت مترددا ، ثم تغلبت على احتجاجى الباطنى وشربته دفعة واحدة ، وما ان استقر فى موضعه حتى فقدت ارادتى وعلى أثر الثالث ضاعت ذاكرتى ، وعقب الرابع اختفى المستقبل ، ودار بى كل شىء ، ونسيت ما جئت من أجله ، أقبل على الرجل

مصغيا ولكنى رأيته محض مساحات لونية لا معنى لهـــا ، وهكذا كل شيء بدا • ومر وقت لم أدره حتى مال رأسى الى مسند الكرسى وغبت فى نوم عميق ، وفى أثناء نومى حلمت حلما جميلا لم أحلم بمثله من قبل • حلمت بأننى فى حديقة لا حــــدود لها ، تنتشر فى جنباتها الأشـــجار بوفرة سخية فلا ترى السماء الا كالكواكب خلل أغصانها المتعانقة ويكتنفها جو كالغروب أو كالغيم • وكنت مستلقيا فوق هضبة من الياسمين المتساقط كالرذاذ ، ورشاش نافورة صاف ينهل على رأسى وجبينى دون انقطاع • وكنت فى غاية من الارتيــاح والطرب والهناء وجوقة من التغريد والهـــديل والزقزقة تعزف فى أذنى ، وثمة توافق عجيب بينى وبين نفسى ، وبيننا وبين الدنيـــا فكل شيء حيث ينبغى أن يكون بلا تنافر أو اساءة أو شذوذ ، وليس فى الدنيا كلها داع واحد للكلام أو الحركة ، ونشوة طرب يضج بها الكون • ولم يدم ذلك الا لفترة قصيرة فتحت بعدها عينى • أخـــذ الوعى يلطمنى كقبضة شرطى ، ورأيت ونس الدمنهورى ينظــر الى باشفاق ، ولم يكن فى الحانة الا بضعة أشــخاص كالنيام • وقال الرجل :

ــ نمت نوما عميقا • لا شك أنك جائع نوم ••

فأسندت رأسى الثقيل الى راحتى ولكننى ردبتها فى دهشـــة ونظرت فيها فرأيتها تلمع بقطرات ماء ، وقلت محتجا :

ــ رأسى مبتل •

فقال بهدوء :

ــ نعم ، حاول صاحبى أن ينبهك ••

ــ أرآنى أحد على هذه الحال ؟!

ــ لا تهتم ، انه رجل طيب ، ألم تسمع عن الشيخ زعبلاوى ؟

فانتفضت قائما وأنا أهتف :

ــ زعبلاوى !

فقال بدهشة :

ــ نعم ، مالك ؟!

ــ أين هو ؟

ــ لا أدرى أين هو الآن ، كان هنا ثم ذهب ..

هممت بالجرى ولكن اعيـــائى كان فوق ما قدرت فما لبثت أن تهاويت فوق الكرسى ، وصحت بيأس :

ــ ما جئتك الا لألقاه ، ساعدنى على اللحاق به أو أرسل أحـدا فى طلبه ..

فدعا الرجل بائع جمبرى وأمره بالبحث عن الشيخ واحضاره ، ثم التفت الى قائلا :

ــ لم أكن أدرى أنك مصاب ، آسف جدا ..

فقلت بغيظ :

ــ لم تدعنى أتكلم ..

ــ يا خسارة ! ، كان يجلس على هذا الكرسى الى جانبك ، وكان يتغزل طيلة الوقت بعقد من الياسمين حول عنقه أهداه اليـه أحد المحبين ، ثم عطف عليك فراح يبلل رأسك بالماء لعلك تفيق .

فسألته وعيناى لا تفارقان الباب الذى ذهب منه بائع الجنبرى :

ــ هل يقابلك هنا كل ليلة ؟

ــ كان معى الليلة ، وليلة أمس وأول أمس ، ولم أكن رأيته منذ شهر . !

فقلت وأنا أتنهد :

ــ لعله يأتى غدا ..

ــ لعله ..

ــ انا على استعداد لأعطيه ما يريد من نقود ..

فقال ونس باشفاق :

ــ العجيب أنه لا تغريه المغريات ولكنه سيشفيك اذا قابلته ..

ـ بلا مقابل ؟
ـ بمجرد أن يشعر بأنك تحبه ..

وعاد بائع الجنبرى بالخيبة ، وكنت قد استعدت بعض نشاطى فغادرت الحانة وأنا أترنح . وعند كل منعطف ناديت « يا زعبلاوى » لعل وعسى ، ولكن لم يفدنى النداء ، ولفت الى غلمان السبيل فتطلعوا نحوى بأعين هازئة حتى لذت بأول عربة صادفتنى ..

وساهرت ونس الدمنهورى الليـــلة التالية حتى الفجر ولكن الشيخ لم يحضر . وأخبرنى ونس بأنه سيسافر الى البلد وبأنه لن يعود الى القاهرة حتى يبيع القطن . وقلت على أن أنتظـــر وأن أروض نفسى على الصبر ، وحسبى أنى تأكدت من وجود زعبلاوى ، بل ومن عطفه على مما يبشر باستعداده لمداواتى اذا تم اللقاء . ولكننى كنت أضيق أحيانا بطول الانتظار فيساورنى اليأس ، وأحاول اقناع نفسى بصرف النظر نهائيا عن التفكير فيه . كم من متعبين فى هـذه الحياة لا يعرفونه أو يعتبرونه خرافة من الخرافات فلم أعذب النفس به على هذا النحو ؟.

ولكن ما أن تلح على الآلام حتى أعود الى التفـكير فيه وأنا أتساءل متى أفوز باللقاء . ولم يثننى عن موقفى انقطاع أخبـــار ونس عنى وما قيل عن ســـفره الى الخارج للاقامة ، فالحق أننى اقتنعت تماما بأن على أن أجد زعبلاوى ..

نعم ، على أن أجد زعبلاوى ..



ـ أخيرا تراءت القرية • والليل يهبط من ذروة الأفق ، والقوم عائدون وراء البهائم ينوءون بالإعياء ، والخـــلاء المدثر بالمغيب يتراءى الى ما لا نهـــاية • تقدم أبو الخير بقدمين متورمتين نحو القرية • من شدة الخوف تجمد قلبه فلم يعد يخفق بالخوف • ومن شدة الألم لم يعد يشعر بالألم • ولمحه العائدون فاتســعت الأعين دهشة وفغرت الأفواه ، وراحوا يتهامســـون ويشـــيرون نحوه • وغض أصدقاؤه بينهم الأبصار ، وجعل يشق طريقه بعيدا عنهـم ماضيا نحو مصيره ، وتابعته الأعين وهو يبتعد رويدا رويدا حتى لم يبق منه الا ما يبقى فى الخاطر من حلم ، وهزوا الرءوس وقالوا : ضاع الرجل •• انتهى أبو الخير ••

***

وقعت مأساة أبو الخير فيما يشبه المصادفة • غلبه النعاس ذات ليلة فى مخزن الغلال بدوار ســـيده الجبار • واستيقظ على حركة لكنه للوهلة الأولى لم يشعر الا بأنه شىء غارق فى الظلام ، أى مكان ؟ ، أى زمان ؟ ، لم يدر شيئا فى الوهلة الأولى ، ثم ردته رائحة الغلال الى وجوده • وانتبه الى الحـــركة التى أيقظته فمد نحوها بصره فى الظلام ، واذا به يســـمع صوتا يقول فى ضراعة ورعب :

ـ لا •• لا •• يا سيدى ••

هذا الصوت يعرفه • صوت زنوبة بنت عليوة • مذعورة كأن وحشا يأكلها ، توثب أبو الخير ليعرب عن شـــهامته بعمل ما لكن صوتا غليظا عميقا سبقه هاتفا فى نبرة محمومة :

ـ اسكتى ••

تسمر فى مكانه وخارت قواه ، هذا الصوت يعرفه أيضا • صوت سيده ، عبد الجليل ، الجبار ، السلطة ، القانون ، الحياة والموت • نسى زنوبة وانحصر تفكيره فى وجوده غير المبرر فى هذا المكان ، فى المأزق الذى خلقته غفوة خائنة ، وبم يجيب لو استجوب!، وفى لحظة اقتنع بأن الورطة ورطته هو لا ورطة زنوبة وحدها ، وبأن الذنب ذنبه هو لا ذنب الجبار الذى لا يسأل عما يفعل ، وظل يحملق فى الظلام حتى تراءى له كائن ضخم كالشبح يضطرب بالحركة ، لعله الجبار مستوليا على البنت كالفرخ بين مخالب الحدأة • واستمرت الضراعة الباكية تلطمها الزجرة المحمومة كما تلطم الزوبعة ورقة الشجر • وتولاه فزع وتقزز ويأس حتى أحب لو يستجيب الله مرة أخرى الى دعاء نوح ، وندت عن الأرض خشخشة مكتومة نمت عن تحركات الأقدام المتوترة ولم تتعد دائرة الشرك الرهيب ، وأنين متوجع أعقبته همهمة كلفحة نار • وخيل اليه أن الظلام يعوى تحت وطأة ثقيلة ، وأن عروقه ستنفر ، وتوثب ليصرخ لأنه لم يعد يتحمل الألم غير أن صرخة من الجبار سبقته ، صرخة ألم مباغت ، بدأت حادة ثم غلظت وانتهت كالزئير ، ثم صاح :

ـ يا مجرمة ••

وسمع وقع لطمة شديدة تبعت بأنين مستسلم يائس وسقوط جسم ، جسم رقيق خفيف الوزن • وقال الجبار بحنق ملتهب •

ـ يا مجرمة !•• خذى ••

وانهالت مطرقة القدم الغليظة على المتأوهة ، خذى •• خذى •• خذى ، وتواصل الأنين آخذا فى الهبوط حتى اختفى ، وتلته زفرات هامسة ، أما الغضب فاشتعل جنونه الى ما لا نهاية ، خذى •• خذى •• خذى ، وصاح أبو الخير بلا وعى :

ـ اتق الله ••

فتلقى صوتا كالقذيفة متسائلا :

ـ من ؟٠٠

فاندفع أبو الخير نحو الباب وشده اليه ٠ انفتح البـاب وتدفق ضوء القمر فرق أبو الخير منه ، واذا بالجبار يصيح :

ـ عرفتك ، أبو الخير ، قف ٠٠

جرى كالرصاصة بقوة التقزز والفزع واليأس ، والصـوت فى أعقابه :

ـ ولد يا أبو الخير ٠٠ يا مجرم ٠٠ قف يا مجرم ٠٠

وتردد صوت السيد فهرت نحوه الأقدام ، وأرهفت الأسماع ، وما لبثت أن استيقظت القرية ، وجعـل أبو الخير يجرى شـوطا ويهرول آخر حتى انتهى الى كوخ صديقه حارس حقل بطيـخ بزمام العمارى ، ارتمى الى جانبه وهو يلهث من الجهد والكلال فأقبـل الآخر عليه مرحبا ملاطفا ومواسيا ٠ قدم له كوز ماء ليشرب ويبلل وجهه ، وراح يصغى الى مأساته فى جوف الليل ٠ وتنهد أبو الخير أخيرا وتساءل :

ـ أتكلم فى النقطة ؟

فهز صاحبه رأسه محذرا وقال :

ـ يقتلونك ولو فى المحكمة ٠٠

فتساءل فى حيرة :

ـ والعمل ؟

ـ اختف ٠

ـ طول العمر ؟

فرفع الحارس رأسه الى السماء دون كلام ، فقال أبو الخير :

ـ الولية والبنت فى القرية تحت رحمة الجبار بلا معين ٠٠

ـ فكر فى حياتك ٠

فتنهد فى كرب شديد وتساءل :



ـ أين القانون ؟

فضحك الحارس ضحكة جافة وقال :

ـ تجده نائما فى بطن بطيخة ٠٠

فى اليوم التالى جاءه الحارس بأخبـــار ٠ قال له انه ذاع فى القرية أن أبو الخير اغتصب البنت وقتلها ثم هرب ٠ شـــهد بهذا السيد نفسه والجميع يصدقونه دون مناقشة ٠ وأهل الضــحية فى حريق من الحزن ، كذلك الأهل والجيران ٠ ورجال كثيرون توعدوا بالانتقـــام ، والحكومة تجرى التحقيق وتسمع أقوال الشـــاهد الوحيد ٠ وحق الخزى على امرأته وابنته وأخرسهما الحزن :

ـ جريمتى أننى رأيت جريمة الآخر ٠

ـ لم نمت فى المخزن ؟

ـ أمر ربنا ٠

فرمقه بأسف قائلا :

ـ اختف ٠٠

ومر بالحارس رجال من رجال السيد يبحثون عن أبو الخير ، ومر به رجال من أهل البنت الضــحية ٠ سمع أبو الخير من مخبئه أصوات المجدين فى البحث عنه ولمح وجوههم الكالحة ونذر الموت المتطاير من محاجرهم ٠٠

ـ سأهرب ٠

ـ نعم ، ربنا معك ٠٠

ـ ليس معى مليم ٠٠

فقال وهو يدارى خجله بغض البصر :

ـ ولا أنا ٠٠

وانطلق أبو الخيـــر عند جثوم الظلام بلا هدف ولا معين ٠ لم يكن جاوز طيلة حياته السوق بحال ولا يعرف عن الدنيا شــيئا ٠ وتجنب القـــرى القريبة لعلمه بأنها فى متناول الجبـــار ، الى أن

الحكومة نفسها تجد الآن فى أثره · ولا سبيل الى تبرئة نفســـه ، وسيكون دائما عرضة فى هذه البقاع وفى أى لحظة الى رصاصة تنطلق فتقضى عليه · وظلام هذا الليل لن يمتد الى الأبد ، سرعان ما ينقشع عن ضوء النهار ، ويبدو هو للأعين كعقرب تستبق اليها الهراوات والنعال · ومن لامرأته وابنته ؟ ، من لهما فى جو ينضـج بالمقت والرغبة فى الانتقام ؟ · وجـد فى السير على غير هـــدى · ووجد الأشياء تعلن فى حذر عن ذواتها فوضحت نوعا ما أشـجار الصفصاف والنخيل ، والزرع المنتشر تتخلله المماشى ، وترعة ابتسم ماؤها وتلألأت أطراف من موجاته ، فخـــرج من ذهوله متعجبا ، والتفت لخاطر برق فى رأسه المكدود نحو الأفق الى يســاره فرأى القمر صاعدا فوق الأرض بأذرع متجليا كأكبر ما يرى وأســـهم الضياء تنطلق منه وانية · ضايقه على غير عادة القمر ، وجعـل يلتفت الى الوراء كلما أوغل فى السير · وترامى نباح من أطراف الصمت الثقيل ، ومرة تعالى عواء فارتعدت فرائصـــه · أين منه مصر الكبيرة ليذوب فى زحمتها ويجـــد مخبأ ولقمة ؟ كم يلزم من الوقت للقدم المتورمة لتقطع ما يقطعـــه القطار السريع فى أربع ساعات ؟ · وانطلقت زعقة غفير كصفير القاطرة فتوقف لها قلبه · لعله يعترض سبيله متسائلا عن هويته ومذهبه · وخاف أن يتقدم خطوة · ومال نحو شجرة جميز فلبد عنـــد أصلها كأنه نتوء فى سحائها · لن يتعرض له غفير فى ضـــوء النهار ولكن من للمرأة والبنت ؟! · يمكن أن يبلغ بعد العذاب مصر ولكن من يحمى المرأة والبنت ؟، وكيف تطيب الحياة لمن يعيش مطاردا الى الأبد محروق القلب على امرأته وابنته ؟ · ولبث يحملق فى الفضـــاء ، أفكاره تتلاطم ، والساعات تمر ، حتى سرقه النوم ، واســـتيقظ وهو يحلم بأنه يتهاوى من قمة جبل · فتح عينيه فرأى الأقدام الغليظة تضرب من حوله حلقة محكمة ·

وقف فزعا وهو يلمح الرجال يرمونه بنظرات كالأحجار المدببة وجيادهم وراء ظهورهم تصهل · وهتف من الأعماق :

ـ أنا فى عرض النبى !

فلطمه أحدهم لطمة أردته على الأرض وصاح به :

ـ تهرب يابن التيس !

فهتف مرة أخرى :

ـ أنا فى عرض النبى !

فغرس الرجل قدمه فى بطنه وهتف :

ـ تغتصب البنت وتقتلها ؟

ـ أنا ··

أوشك أن يقول أنا برىء ولكنه تذكر لحسن حظه أنه يخاطب رجال الجبار فأمسك ، ورمق الرجل بنظرة ذليلة خرساء · فقال الرجل :

ـ ارجع واعترف ··

قال بنبرة باكية :

ـ يشنقوننى !

فركله بقسوة وقال :

ـ السيد لن يتركك لحبل المشنقة !

ـ يسجنوننى !

ركله ركلة أشد من الأولى وقال :

ـ ويعيش أهلك فى أمان !

تأوه يائسا ولم ينبس فزمجرت الحناجر تتعجله ، فقال بصوت مهموس :

ـ سأرجع ··!

ورجع يقطع الطريق على قدميه وهم يتبعونه عن بعد ·

وأخيرا تراءت القرية · والليل يهبط من ذروة الأفق · والقوم عائدون وراء البهـــائم ينوءون بالاعياء · والخلاء المدثر بالمغيب يترامى الى ما لا نهاية · تقدم أبو الخير بقدمين متورمتين نحـــو القرية · من شدة الخوف تجمد قلبه فلم يعد يخفق بالخوف · ومن شـدة الألم لم يعد يشعر بالألم · ولمحه العائدون فاتسـعت الأعين دهشة وفغرت الأفواه · ورأحوا يتهامسون ويشيرون نحوه · وغض أصدقاؤه بينهم الأبصار · وجعل يشق طريقه بعيدا عنهم ماضـيا نحو مصيره · وتابعته الأعين وهو يبتعد رويدا رويدا حتى لم يبق منه الا ما يبقى فى الخـــاطر من حلم · وهزوا الرءوس وقالوا : ضاع الرجل ·· انتهى أبو الخير ··

كلمة في الليل

أخيرا انزاح ، وأصبحت احالته على المعاش حقيقة واقعة • وانتشر الخبر فى المراقبة مشيعا الارتياح العميق فى كل ادارة ، وكان ثمة تهامس كالأنين بأن فى النية مد خدمته عامين جديدين ، • وبسبب ذلك نجح سكرتيره الخاص فى جمع التبرعات لاقامة حفل تكريم له ، ثم جاء الخبر اليقين كالشـفاء بعد المرض • وتبادل الموظفون التهانى بلا حرج ، وفرح حتى أتعسهم كادرا ، وحق لمحمد الفل رئيس المحفوظات أن ينقر على مكتبه الكالح جذلا ويقول :

ـ ألم يكفنا أننا تحملناه أربعيين عاما ؟ ! ، اللهم ان لنا الجنة بغير حساب ••!

وروح يسرى طاهر كاتب القيودات العجوز بدفتـر القيد على وجهه وقال :

ـ فى ألف داهية يا حسين يا ضاوى ••

ولم يكن فى سـيرة الرجل المحال على المعاش شىء يخفى ، ولكنهم أقبلوا عليهـا كأنما تؤرخ لأول مرة • وأبرز يسرى طاهر القابع تحت رفوف المحفوظات المكدسـة رأسه ـ من بين صـفين عاليين من الملفات فوق مكتبه ـ كرأس السلحفاة وقال :

ـ دخلنا الخدمة فى يوم واحد ، قرار تعيين واحد شمل يسرى طاهر وحسين الضاوى وعلى الكفراوى وعبد السلام زهدى ورغيب اسكندر (وكان يشير بأصبعه الى الثلاثة الآخرين) ثم أعطاه ربنا ، أو أعطاه الشيطان وهو الأصدق حتى تقلد منصب المراقب العام فى سرعة مذهلة ، ماذا فعل لنا ؟ ، كان يمر بنا وكأنه لم يعرفنا ، لم يمد لأحـد يدا ، داسنا كأننا حشرات حتى اكتظت ملفات خدمتنـا

بالعقوبات ، ومضى يترقى حتى بلغ القمة ونحن ما زلنا فى القاع ، عليه اللعنة !

قطـــوى رغيب اسكندر وكيل الصـــادر الجـريدة التى كان يتفحصها ، وتزحزح الى الوراء قليلا ليتفادى من شـــعاع الشمس المنعكس على ضلفة النافذة الزجاجية ، وضحك ضحكة مقتضـبة كالنـذير ، ثم قال بنبرة ممطوطة تناسـب الجرى وراء الذكريات البعيدة :

ـ الله يسامحك يا حسين يا ضاوى ، كنا جميعا من ســـاقطى الابتدائية ، وعملنا معا عمالا فى المطبعة ، وكان ســـعادته يجىء أحيانا بالجلباب والقبقاب ألا تذكرون ؟ ، ليس الفقر عيبا طبعـا ، ولكن العيب فى الطرق الملتوية الشاذة المهينة التى يرتفع بها بعض الناس بغير الحق ، ويوما انتقل عامل المطبعـــة كاتبا بسكرتارية المدير ! كيف ولم ؟ وبعد ســـنة عين سكرتيرا للمدير ، ثم مديرا لمكتبه ، ثم زوجا لابنته ، ثم انطلق كالصاروخ الذى نسمع عنه فى هذه الأيام ! ، يا خبر أبيض يا حسين يا ضاوى ! ، ولا الأحلام ٠٠

فقال محمد الفل رئيس المحفوظات مكايدا :

ـ كانت الفرصة أمامكم فلم خبتم ؟!

وتجاوبت ضحكاتهم الملتوية المائعة كأنما تحكى فضيحة ، وقال يسرى طاهر :

ـ لا يتيسر الوثوب الخاطف الا لمن حاز مؤهلات خاصة !

وتساءل محمد جاد وهو كاتب حديث الخدمة :

ـ ألم يكن المراقب من حملة الليسانس ؟

فقال رغيب اسكندر بتسليم :

ـ حصل على الابتدائية والكفاءة والبكالوزيا وليسانس الحقوق من منازلهم !

فارتسمت الدهشة فى وجه الشاب حتى قال على الكفراوى مدير الدفترخانة :

ــ لا تدهش ، كان قوة نشــاط عجيبة ، لكنه لم يرتفع بفضــل شهاداته ، بل انه لم يحصل عليها الا حين وجد نفســـه فى مركز لا يليق أن يســـتمر فيه دون شهادة عالية ، كان قذرا بكل معنى الكلمة ، ولكنه فى القدرة على العمل فاق ابليس نفسه !

فعاد محمد الفل يقول وهو يكور راحته على المسبحة :

ــ العمل ؟ ، ذكرتنى يا سى على ، كانت حياته عملا خالصا ، عمل ٠٠ عمل ٠٠ عمل ، أممكن أن يعد ذلك فضيلة ؟ ! ، ما قيمة العمل اذا لم يختم يوم الانسان بساعة صفاء ومحبة تجعل للحياة طعما ؟ ، هه ؟ ، أما مديرنا العام ــ السابق والحمد لله ــ فلم يتمتع بحياة على الاطلاق ، دوسيهات ٠٠ ملفات ٠٠ مذكرات ٠٠ تلك كانت حياته ، حتى يوم الجمعة كان يواصل العمل فى بيته ، وكان يعمل كل يوم حتى ساعة متأخرة من الليل ، وحتى فى الأعياد والمواسم الرسمية ، ولم يقم فى اجازة اعتيادية فى حياته كلها مرة واحدة ، عمل ٠٠ عمل ٠٠ عمل ٠٠ وكان هدفه من العمل خدمة وكيل الوزارة أو الوزير ليتقاضى فى النهاية علاوة أو درجة ، حياة كاملة مضت على وتيرة واحدة بين مسكنه فى الحدائق وميدان لاظوغلى ، ٠٠ أعوذ بالله ٠٠

فقال عبد السلام زهدى وكيل الوارد ووجهه يتقلص اشمئزازا :

ــ حتى الطعام كان يتناوله شطائر فى مكتبه بسرعة ولهوجة ، وانقطعت أسبابه بأسرته أو كادت ، حتى بناته المتزوجات لا يراهن الا خطفا ، وامرأته قضت حياتها فى شبه فراغ مخيف ، انه مجرم ولكنه قضى على نفسه بالعقوبة التى يستحقها ، ذلك الرجل البغيض الذى لم يعرف من الدنيا الا الملفات والمذكرات والتعاليم المالية ٠٠

وهز رغيب اسكندر رأسه فى أسى وقال :

ـ لكنه لم يكن عدو نفسه فقط ، كان أيضا عدو الآخرين ..

وسرعان ما سال الامتعاض من زوايا الأعين ، وقال محمد الفل بنبرة مغيظة محنقة :

ـ لم أر موظفا كذلك الرجل استغل جهود جميع مرءوسيه ليفيد هو منها وحده ، ويمنع الخير عن الآخرين كما لو كان سيؤخذ من لحمه ودمه !

فأردف عبد السلام زهدى قائلا :

ـ وحتى هذا شر سلبى ، أما مقالبه وغدره ونميمته ووقيعته ، كل أولئك فشر اجرامى ، كم أحرق قلوبا هذا الرجل ؟

ـ قل كم خرب بيوتا ؟

ـ الله يرحمه فريد قناوى مات وهو يدعو عليـــه على فراش موته ..

ـ وحسنى غنيم مدير الحسابات السابق شل بسببه ..

فقال يسرى طاهر كاتب القيودات :

ـ لا حصر لضحاياه ، لكنه لم يفكر الا فى شىء واحـــد هو مصلحته ، وترك الوزارة بلا صديق ، أؤكد لكم أنه لا صديق له فى الدنيا ..

وحوالى الساعة السادسة من مساء الخميس وقف تاكسى أمام نادى « فينكس » فنزل منه حسين الضاوى . جاء ليشـــهد الحفل الذى يقام لتكريمه فوق حديقة السطح لمناسبة احالته على المعاش .

كان قد قضى فى المعاش يوما واحدا ، يوم الأربعاء . يوم لن ينسى فى الأيام . أقل ما يقال فيه انه جعله يتساءل فيما يشبه الرعب هل حقا يستطيع أن يتحمل يوما آخر كذلك اليوم !. وحيرته فى مسكنه صـــباحا تحت أعيـن امرأته المشـفقة هم آخر لا ينسى . والراديو تسلية لم تخلق له ، لا يكاد يعرفه ، ولم يجد الفرصـة ليتعرف به . والكون كله بدا أنه كف عن الحركة . وارتدى بدلته

التى لم يعد لها معنى كأنها بدلة عسكرية لضـابط متقاعد وغادر البيت غارقا فى الكرب ، ومشى حتى أدركه الاعياء سريعا فاستقل عربة الى وسط المدينة · أزعجه الازدحام كأنما سد مسالك تنفسه ، وتريث قليلا أمام معارض المحال التجارية ولكن عينيه لم ترغبا فى رؤية شيء ولم تكترثا لشيء ، وخشى أن تقع عليـه فى تخبطه عين أحد من معارفه ، أى من الأعداء ، فلاذ بأول مقهى صادفه ، ومضى الى آخر ركن فيه · لم يكن ارتاد مقهى منذ أربعين عاما ، مذ كان يجالس يسرى طاهر وعلى الكفراوى ورغيب اسكندر وعبد السـلام زهدى فى مقهى المالية فى الزمان الأول · وقال لنفسه انه يأوى أخيرا الى ملجأ الكسالى والعجزة · فعصرته حسرة ·

وتصفح جريدة ولكن ماذا يقرأ ؟ لم يهمه فى الجريدة فيما مضى الا أخبار الوفيات والدواوين وسرعان ما تململ فى مجلسه فكرهه وكره من فيه ، وطوقته الوحدة كالقبر ، وشعر فى انفصـاله عن الوزير والوكيل والمذكرات بضياع أبدى · غادر القهوة ليسـير بلا هدف على ما فى ذلك من جهد لم يعتده ووجد نفسه يمر بسينما فدخل · والسـينما كذلك مكان لم يطرقه طوال الأربعين عاما الا مرات معدودات فى مناسبات الاحتفالات التقليدية بخطبة بناته ، ولم يلبث فيها الا نصف ساعة ، ثم غادرها وهو يزفر مللا ويأسا ، وعاد الى البيت ذليلا · وجد ابنتيه المقيمتين فى القاهرة فى زيارته فجالسهما طويلا لأول مرة منذ عهد لا يذكره ، واستقر بنفسه أول احساس بالارتياح فى يومه الجهنمى · ثم وجد نفسه منفردا بزوجته فى جلسة مرهقة ، والراديو يواصل ضجيجه لا يهمه منه شيء ولا يهزه شيء ، وساءل نفسه ألا يعد امرأته فى معسكر أعدائه المزدحم ؟ هى لم ترض يوما عن أسلوب حياته ، واحتجت المرة بعد المرة على اهمالها وفراغها وجفاف حياتها ، ولولا أن وجدت ملاذا فى بيتى ابنتيها لحطمت حياتها بيديها ، ترى هل ارتاحت الى هذه النهاية

الخانقة ؟٠٠ هل تحلم بشيء من الأنس تجده فى وحشته المنكسرة ؟! وحين استلقى فى فراشــه تساءل فى رعب كيف يتحمل يوما آخر كهذا اليوم ؟!٠

أما حفل التكريم هذا فهو آخر ما يربطه بالمــاضى ، بالناس ٠ وهو حدث له أهميته ٠ على الأقل لتعلم الوزارة خطورة الرجل الذى تقاعست عن مد خدمته ، وليعلم أعداؤه من كبار الموظفين وصغارهم أى رجل هو ! ٠ سوف يقف أمامهم مهيبا جبارا مســتهينا باسما ولن يدرى أحد بالذل الذى كابده أمس ٠ انهم يمقتونه مقتا ولكن خطباءهم سيستبقون الى الاقرار بمزاياه التى لا يمكن انكارها ، وسـيرد على تحياتهم بتحية بارعة يؤكد بها تلك المزايا بطـريقته الخاصة ، وسيجد فرصا للتهكم من كبار أعدائه بلباقة شيطانية ٠ انها آخر حلبة ملاكمة يخوضــها ، ملاكمة بقفازات حريرية لكنهـا مبطنة بالحديد ، وليخرجن منها ظافرا ٠ استقل المصعد الى ســطح النادى ، ومضى نحو مدخل الحديقة فى مشيته التقليدية التى كانت تفسح له الطريق فى أورقة الوزارة كأنه قاطرة ٠ وامتد بصره الى الداخل فرأى الموائد على هيئة صدر وجناحين ولكن المقاعد كانت خالية ، أو شبه خالية ! ٠ وعلى وجه الدقة لم ير الا الســادة / صــلاح الدين كامل مدير المستخدمين ، وابراهيم شـافعى مدير الحسابات ، وأمين هنداوى مدير المخازن ، وزيادة عبيــد المراقب العام الذى حــل محله ، أربعة من أعدى أعدائه وبخاصــة الرجل الأخير ٠ ثقلت قدماه وطاف به ما يشــبه الدوار ٠ حلوى وورود ولكن أين الآدميون ؟ ! ٠ كادت تخذله ارادته لولا الاســتماتة فى مدافعة الشماتة بأى ثمن ٠ الأوغاد الجبناء قاطعوا الحفــل ٠ ترى أهى مكيدة مدبرة ؟ ٠ ومن المدبر ؟ لكنه ابتسم لحسين الضاوى كما كان يبتســم فى فترات الهزائم الوقتية التى تعقب استقالة وزير صـديق ، وتقدم نحو أعدائه يصــافحهم واحدا واحدا ، ثم ألقى

نظرة على المقاعد الخالية وقال وهو ما يزال يبتسم :

ـ فيكم الكفاية ، تفضلوا بالجلوس ..

جلسوا . وجاء الخدم ليؤدوا الخدمات المألوفة ، وانتظر الرجل حتى ابتعد الخدم ثم أطلق ضحكة ميتة وقال مداريا حرجه :

ـ يبدو أن الختام ليس مسكا ولا كالمسك ..

فقال مدير المخازن فى دهشة بلهاء :

ـ لعله وقع خطأ ليس فى الحسبان ..

فقال مدير الحسابات :

ـ ننتظر على أى حال ..

ولكن حسين الضاوى قال باستهانة :

ـ الانتظار لن يجدى ..

فقال صلاح الدين كامل وكان أقربهم جميعا الى روح المهادنة ، قال وهو ينظر الى المقاعد الخالية :

ـ لم أر فى حياتى قلة ذوق كهذه ..

فحسا الضاوى حسوة شاى باللبن ثم قال والغضب يشتعل تحت قبضة ارادته :

ـ لا أدرى شيئا عما وقع ، ولا يهمنى كثيرا أمره ، وسأصارحكم برأيى كما عودتكم ، هنالك طراز واحد من الرجال أحترمه ، طراز الرجل القوى ، وهو غير المحبوب بطبيعة الحال ، ولو كنت ممن يلتمسون الحب ما أعجزنى !

وعكست عينا زيادة عبيد المستديرتان الصغيرتان الحادتان نظرة ساخرة ، سرعان ما فجرت الغضب الكامن فى عروق الضاوى ، فقال وهو يحدج خصمه فى حنق :

ـ أنا لا يهمنى شىء ، لم يوجد رأس لم ينحن لى طويلا .

فتظاهر زيادة بالدهشة لغضب الرجل وقال ببرود كالموت :



ـ طول عمرك مناضل ملاكم ولكننى لا أذكر أننى رأيتك غاضبا مرة واحدة ...

فقال الضاوى بصوت ملتهب :

ـ لم يحدث أن وجدت أمامى من يستحق أن يثير غضبى !

فتساءل صلاح الدين كامل برجاء :

ـ ألا يمكن أن تمر الجلسة بسلام ؟!

فأشار الضاوى الى المقاعد الخالية وهتف بصوت متهدج :

ـ مؤامرة دنيئة ..

فرمقه زيادة عبيد بهدوء ساخر وقال ببروده المعتاد :

ـ أنت مخطىء ، لم نعمل على منع أحد من الموظفين من الحضور ، وما جئنا الا لظننا بأنهم موجودون فى الحفل حتى نحافظ أمامهم على كرامتنا كموظفين كبار ..

ثم بهدوء مركز كالسم :

ـ والا ما كان هناك باعث واحد يدعونا الى المجىء !

امتقع لون الضاوى وتحركت شفتاه حركة عصبية كحركة ذيل البرص المقطوع ، وركز فى خصمه عينيه وعشرات الاحتمالات الجنونية تتلاطم فى رأسه ، لكنه كظم الطوفان فى اللحظة المناسبة ، وقال بحقد وتحد :

ـ أنا غير نادم على أننى عاملت كل شخص بما يستحقه ..

فتساءل زيادة بسخرية :

ـ ماذا جنيت من حياتك ؟!، الدرجة ها أنت تتركها فى مكانها ، الدرجة التى نبذت كل شىء فى سبيلها ، وعقابك الحقيقى أنك ستجد أن الحياة قد نبذتك أيضا ..

وعاد صلاح الدين كامل يقول برجاء :

ـ سيسمعنا الخدم !

فوقف الضاوى وهو يقول دون مبالاة :

ـ لا يهمنى ، المراقب العام لا يهمنى بتاتا ، كذلك الخدم ، كل شىء يبدو حقيرا لا يستحق الأسف ·· « السلام عليكم » ··

ومضى دون أن يصافح أحدا · وما لبث أن سافر الى المنصورة ليمضى أياما عند كبرى بناته ·· قضى أسبوعا فى صحة أقرب الى الاعتلال ولكنه رجع الى الحدائق على حال لا بأس بها · وخيل اليه أنه نسى حفل التكريم وآلام الهزيمة ولكن الحزن لم يفارقه ، ولا الخوف من المستقبل ، من الملل والفراغ · وكان أعجب ما وقع له أنه اكتشف عند صلاة الصبح أنه لم يكن يفقه معنى للفاتحة · حقا لم ينقطع يوما عن الصلاة ، ولكنه كان يؤديها كما يحلق ذقنه وكما يعقد رباط عنقه بفكر مشغول بأمر أو بآخر ، بمذكرة يعدها ، ببند من التعاليم المالية ، بمعركة يتوثب لها ، بأى شىء الا الصلاة ·

ولأول مرة وجد نفسه أمام هذه العبارة « باسم الله » بلا مشاغل يشغل قلبه عنها ، فاكتشفها لأول مرة فى حياته · وشعر بدوار وغرابة ، وتساءل كيف مر ذلك العمر الطويل ؟ ! · ومن شدة انفعاله غادر مسكنه الى الطريق ، وسار فيه الى الداخل الى الشارع العمومى كما ألف أن يفعل كل يوم فى عشرات الأعوام الماضية ، ثم لم يتفق له أن يسير فى هذا الاتجاه أبدا منذ زمن بعيد جدا ، وبخاصة فيما وراء المنعطف ، ولا كان ثمة ما يدعوه الى ذلك ، فظل يحتفظ له بصورته القديمة اذ كان طريقا مقفرا تحدق به الحقول من الجانبين ، باسم الله بها تبدأ كل سورة ، والحق يجب أن يبدأ بها كل شىء ، ولعل هذا هو المراد حقا ، وكلما أوغل فى الطريق بدت له كائنات جديدة لم تكن لتخطر له على بال · امتدت على الجانبين الفيلات بحدائق مخضرة منسقة ، وتراءت وراءها الحقول · وقامت على الطوارين الأشجار بجمالها الرزين ، كأنها

فى صمتها تتناجى بلغة تنتظر من يكشـــف عن سرها كما كشف هو عن سر آخـر • وبدا الطريق ممتدا الى غيـــر نهاية فعجب غاية العجب وتساءل متى خلق هذا العمران كله ؟ ! • وخيـــل اليه أنه سيخجل كثيرا عند البوح بكشفه لأحد من الناس • ولكن أى أحد من الناس يعرفه ليبوح له بكشفه ؟ • ان العمران لم يدخـــل بعد قلبه ، قلبه المقفر من كل شىء • وعقابك الحقيقى انك ستجد أن الحياة قد نبذتك أيضا • كما وجدها يوم الأربعاء أول أيام المعاش ، ماذا جنى من حياته الماضـــية ؟ • ماذا جنى غير الفراغ والدوار ؟ • قدمت من الجهد فوق ما يطيق البشر ، ولكنه جهـــد مضى باســم الطموح الجنونى ، باسم الجشع ، باسم الأنانية ، باسم الكراهية ، باسم الحقد . باسم العراك ، ولا عمل واحد باسم الله • وتأوه فى موقف اختاره تحت ظل شجرة غير مبال بأنظار المارة • ترى هــل فات الأوان وضاعت الفرصة ؟ • وامتد بصره مع الطريق فتراءت أشجاره المتباعدة كأنها سياج شـــبه متصل من الخضرة اليانعـة تتخللها رءوس المصابيح الكهربائية البيضاء • كل هـــذا العمران والجمال قائم فى الطريق الذى يعيش فيه من قديم وهو لا يدرى به ، ماذا يعرف من هذه الدنيا العجيبة ؟! • وماذا يفعل بماضيه المثقل ؟ • وتنهد فى حزن كأنه بنيان يتقوض • ورجع الى مسكنه وهو يلهث من الانفعال فوجد امرأته جالسة تتشمس فجلس الى جانبها وهو يقول :

ـ لم أكن أتصور أن شارعنا على هذا القدر من الجمال !

فتساءلت :

ـ ماذا حدث له ؟ •

ـ شارع جديد ، ممهد ونظيف ، والفيللا والأشجار !

فقالت بدهشة :

ـ هو كذلك طول عمره ••

ـ لكننى لم أره الا اليوم !

فرمقته بنظرة فاترة لكنها ناطقة بأمر انتقاد وتأنيب فتقبلهـــا خاضعا ، وتساءل فى لهفة ترى هل فى العمر بقية لاصلاح الماضى الفاســـد ؟ • للاعتذار عن كل هفوة ، والتكابر عن كل جريمة ، وتحويل الأعداء والضـــحايا الى أصدقاء ؟ • وفكر مليـــا ثم قال بحماس طفلى :

ـ ألا يمكن أن يبدأ الانسان حياة جديدة ولو فى مثل عمرى ؟

ـ أى حياة ؟!

ـ جديدة بكل معنى الكلمة ، أرجو أن تجيبى بأن هذا ممكن •

فساورها حب استطلاع مشوب بقلق وقالت :

ـ لا أفهم ، ماذا تعنى ؟

ـ سوف تفهمين ••

جديدة بكل معنى الكلمة • والا فكيف يحتمل العمر الباقى ؟•• هـــل ينسى يوم الأربعاء ؟ • وأغمض عينيه كمن يتذكر أشـــياء مستعصية • وكانت تتابعه بعينين قلقتين فما لبثت أن ســـاءلت نفسها : ترى لم يبتسم هكذا ؟•

وكان حقا يبتسم • ابتسامة جديدة ، لا نفاقا ولا تشـفيا ولا استفزازا ولا سخرية ولا مكرا ولا تحريضا ولا •• ولا ••

ابتسامة صافية •

حادثة

كان يتكلم فى تليفون الدكان بصوت مرتفع ليسمع صوته رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخبة . وجعل بميل بنصفه الأعلى داخل الدكان ليبتعد ما أمكن عن الضوضاء ، ثم ختم حديثه بقوله « انتظرنى ، سأحضر فورا » وأعاد السماعة الى موضعها وتناول علبة سجائر هوليود من فوق الطاولة ونقد البائع نقوده ــ ثمن العلبة والمكالمة ــ واستدار فوق الطوار متجها نحو الطريق . كان فى الستين أو نحوها ، طويل القامة نحيلها ، كروى الجبهة والعينين ، مكور الذقن ، وأما صلعته فلم يبق فوق مراتها الا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه . وقد أفصح مظهره عن اهمال صريح نتيجة للسن أو الطبع أو نسيان الذات . على ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة ، وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج ، فأشعل سيجارة وأخذ نفسا عميقا ، وبدا أنه ينظر الى الداخل لا الى الطريق ، ثم مال يمنة بمحاذاة صف من اللوريات الواقفة لصق الطوار حتى وجد منفذا الى الشارع . ونفض السيجارة وهو يبتسم ، ثم مرق من المنفذ ليعبر الشارع الى ضفته الأخرى . وما كاد يجاوز مقدمة اللورى الأخير حتى شعر باندفاع سيارة فورد نحوه بسرعة فائقة . وقال أحد الشهود فيما بعد انه كان عليه أن يتراجع بسرعة ، وانه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة ، لكنه لسبب ما ــ لعله المفاجأة أو سوء التقدير أو القضاء ــ وثب الى الأمام وهو يهتف « يا ساتر يا رب » وجرت الحوادث متلاحقة . ندت عن الرجل صرخة كالمغواء ، وفى ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة والواقفين على الطوار وفوق افريز محطة الترام . ورئى

غير آدمى • وصدر عن فرملة الفورد صوت محشرج متشنج ممزق وهى تزحف على الأرض بعجـــلات متوقفة جامدة • وهرع نحـو الضحية فى ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر فى المنطقة الهرج • ولم ينبض جسم الرجل بحركة واحدة ، وكان منكفئا على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه ، واحدى رجليه ممدودة الى آخرها ، والأخرى منثنية منحســـرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر وقد فقدت فردة حذائها ، وتغشاه صمت بخلاف كل شيء حوله كأن الأمر لا يعنيـــه البتة • الرجل وهو يرتقع فى الفضاء أمتارا ثم يهوى فوق الأرض كشيء والصق سائق الفورد ظهره بالسيارة من باب الحيطة وراح يخاطب مجموعة من الحفاة أحدقت به على سبيل المراقبة :

ـ لا ذنب لى ، اندفع هو من أمام اللورى فجـــأة ، وبسرعة ، ودون أن ينظر الى يساره كما يجب ••

واذ لم يجد وجها مستجيبا عاد يقول بلهجة خطابية :

ـ لم يكن فى الامكان أن أتجنب صدمه ••

وند عن المصاب صوت كالزفير المكتوم ، وتحرك حركة شاملة مباغتة ، ثانية واحدة ، ثم غرق فى اللامبالاة ••

ـ لم يمت ! ، حى •

ـ لعلها اصابة بسيطة ••

ـ لكنه طار فى الهواء والعياذ بالله !

ـ ولو ، عفو ربنا كبير ••

ـ لا يوجد دم ؟

ـ عند فمه ، انظر ••

ـ كل ساعة حادث من هذا النوع ••.

وجاء شرطى مسرعا ففتح له وقع قدميه ثغرة فى السور الآدمى نفذ منها وهو يصـــيح بالناس أن يبتعدوا • فابتعدوا خطوات ،

خطوات فقط ، وعينهم لا تتحول عن الرجل ولا تخف حدة تطلعها واشفاقها · وقال انسان :

ــ سيبقى هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئا ··

فأجابه الشرطى بلهجة رادعة :

ــ أقل لمسة قد تقتله ، وبوليس النجدة والاسعاف فى الطريق اليه ··

واعترض الحادث جانب الطريق فاضطرت السيارات الى الالتفاف حول السور البشرى مشاركة الترام فى ممشاه فضاق بها حتى تحركت فى بطء شديد وتجمعت فى صفوف ممتدة ومتداخلة وهى تصرخ وتعوى بلا فائدة ، ومن ركابها تطلعت أعين الى الضحية فى اهتمام ، وأعين تجنبت النظر فى جزع · وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلزونية فاتسعت الحلقة ، وغادرت القوة السيارة الى الرجل الملقى ، وكان الضابط حاسما وحازما فأصدر أمرا بتفريق المتجمعين ، وتفحص الرجل بنظرة شاملة ، وسأل الشرطى :

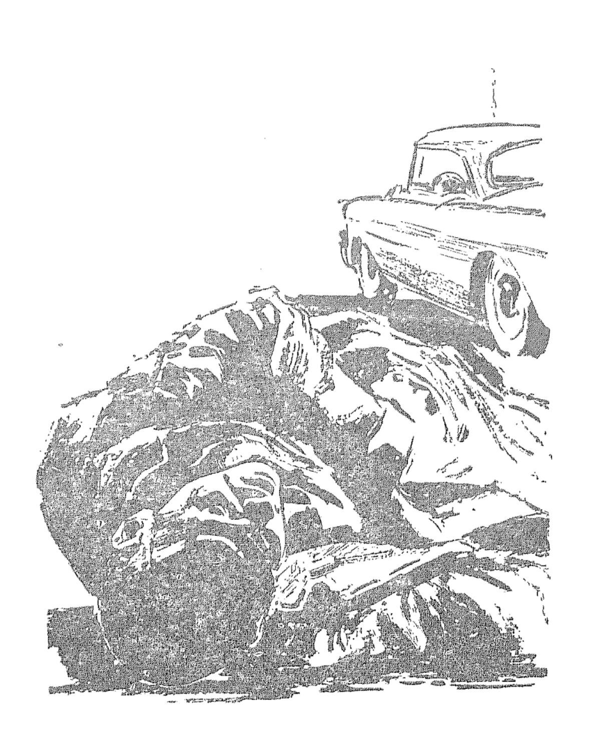
ــ ألم تحضر الاسعاف ··؟

واذا لم تكن ثمة ضرورة الى السؤال فانه لم يلق بالا الى الجواب ، وتساءل مرة أخرى :

ــ هل من شهود ؟ !

فتقدم ماسح أحذية وسائق لورى وصبى كبابجى كان عائدا بصينية فارغة · وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ كان الرجل المجهول يتكلم فى التليفون · وجاءت سيارة الاسعاف ، وأحاط رجالها بالرجل ، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء ، ثم نهض متوجها الى الضابط فبادره هذا قائلا :

ــ أظن يجب نقله الى الاسعاف ··؟



فقال الآخـــر بلهجة ذات أثر لا يختلف عن الأثر الذى يحدثه عادة جرس سيارته :

ـ بل يجب نقله الى مستشفى الدمرداش ..

وأدرك الضابط ما يعنيه ذلك على حين استطرد رجل الاسعاف قائلا :

ـ أعتقد أن الحالة خطيرة جدا ..

وعندما أرقد الرجل بحجرة الفحص بمستشفى الدمرداش كانت طلائع الليل تزحف كالجبال . وفحصه مدير القسم بنفسه ، ثم التفت الى مساعده قائلا :

ـ اصابة خطيرة فى الرئة اليسرى ، تهدد القلب مباشرة

ـ عملية ؟

فهز رأسه قائلا :

ـ انه يحتضر ..

وصدقت فراســـة الطبيب فقد تحرك الرجل حركة شـــاملة كالرعشة ، واضطرب صدره اضطرابا متلاحقا محشرجا ، ثم شـــهق شهقة خفيفة واستكن . وكان الطبيبان يراقبانه فالتفت المدير نحو مساعده وهو يقول :

ـ انتهى ..

وجاء ضابط النقطة وكان الرجل ما يزال راقدا بكامل ملابسه عدا فردة الحذاء المفقودة . وقال الطبيب :

ـ هذه الحوادث لا تنتهى ..

فقال الضابط وهو يومىء الى الفقيد :

ـ وشهادة الشهود ليست فى صالحه !

ثم وهو يقترب من السرير :

ـ أرجو أن نستدل على شخصيته ..

وشرع فى عمله على حين بسط الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة وتأهب بدوره لتسجيل المحضر . ودس الضابط يده برفق فى جيب الجاكتة الداخلى فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضى يفتشها جيبا جيبا ويملى على الشاويش :

ـ خمسة وأربعون قرشا من العملة الورقية ..

روشتة للدكتور فوزى سليمان ..

وألقى نظرة عابرة على أسماء الأدوية ولكنه لاحظ وجود كتابة على ظهرها أيضا فجرى بصره عليها بلا ارادة فاذا بها : المواد الكحولية والبيض والدهنيات ممنوعة ، ويستحسن تجنب المنبهات كالشاى والقهوة والشيكولاطة . وابتسم الضابط ابتسامة باطنية اذ أن تعليمات مماثلة صدرت اليه من طبيبه فى نفس الشهر ! ، ثم واصل املاءه وأصابعه تستخرج من الحافظة محفوظاتها :

ـ مجلد صغير من السور القرآنية ..

ولما لم يجد شيئا آخر فى الحافظة قال بضيق :

ـ لا توجد بطاقة تحقيق شخصية !

وانتقل الى الجيب الداخلى الصغير وما لبث أن قال بفتور :

ـ ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية ..

ووجد أيضا حقا صغيرا فرفع غطاءه المحكم فرأى مادة غريبة كالبن المسحوق ، وامتلأ أنفه برائحة مسكية ، ثم ما لبث أن عطس عطسة من الأعماق ، فأعاد الغطاء الى موضعه وقال بعين دامعة :

ـ حق نشوق ..

وتوالى التفتيش وتتابع الاملاء :

ـ منديل ، علبة سجائر هوليود ، سلسلة مفاتيح ، ساعة يد ..

وكان آخر ما عثر عليه صفحة مطوية من كراسة فبسطها فوجدها رسالة لم تغلف بمظروف بعد ، فأمل أن يصادف فيها

ما يمكن أن يستدل به على شخصية الرجل • نظر أول ما نظر الى الامضاء ولكنها لم تزد عن « أخوك عبد الله » فعاد الى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة « أخى العزيز أدامه الله » ، فابتاء من هذه المعاندة ولم يجد بدا من قراءتها •

أخى العزيز أدامه الله :

اليوم تحقق أكبر أمل لى فى الحياة •

اضطر الى التوقف رافعا عينيه الى تاريخ الرسالة ، وكان تاريخ اليوم نفسه ٢٠ فبراير ، وامتد بصره فوق الأسطر الى الوجه الباهت المشوب بزرقة مخيفة ، المغلق كسر ، الجامد كتمثال ، ذلك الذى تحقق أكبر أمل له فى الحياة • وتساءل الطبيب :

ـ عثرت على شىء ؟

فانتبه الى نفسه وابتسم ابتسامة استهانة ليدل على اعتياده أى شىء وقال :

ـ اليوم تحقق أكبر أمل لى فى الحياة ، بذلك بدأت الرسالة !

وعاد الى القراءة متجنبا النظر الى عينى الطبيب : « فقد انزاحت عن صدرى الأعباء المريرة ، انزاحت جميعا والحمد لله ، أمينة وبهية وزينب فى بيوتهن ، وها هو على يتوظف ، وكلما ذكرت الماضى بمتاعبه وكدحه وقلقه وشقائه أحمد الله المنان ، وهذا هو النصر المبين » •

واسترق النظر مرة أخرى الى الانسان الراحل ، الذى لا يدرى أحد مقره ، الذى يثير الدهشة بصمته وانعزاله وارتداده العميق الى المجهول • المتاعب والقلق والشقاء والأمل الكبير والنصر المبين ! •

« وبعد تفكير طويل قر رأيى على ترك الخدمة » • فعلا • « فهيهات أن تتحسن صحتى طالما بقيت فى المدينة ، وحسبت الحسبة فوجدتنى أخدم فى الحكومة بثلاثة جنيهات هى الفرق بين

المرتب والمعاش ، لذلك قررت أن أطلب احالتى على المعاش ، وقريبا أعود الى البلدة ان شاء الله ، وسوف أنضم الى مجلسك الظريف عند عبد التواب شيخ الخفر ، أما الآن فكل شيء بخير وليس فى الامكان خير مما كان » ٠

وطوى الضابط الرسالة وهو يقول :

ـ انه موظف كما يفهــم من خطــابه ولكن ليس به ما يمكن الاستدلال على هويته ٠

فقال الطبيب :

ـ ستتخذ الاجراءات المألوفة وغالبا ما يجيء أهله فى الوقت المناسب فيتسلمون الجثة من المشرحة ٠٠

حنظل والعسكري

هذه الأقدام الثقيلة تبعث وقعا له في صـــدره صدى مخيف ، والنحنحة الصادرة عن صاحبها نذير بالمتاعب والآلام ، انه الشاويش قادم فى ظلمة الليل · تمنى أن يفر من وجهه لكنه لم يستطع ، وبكل مشقة قام وهو يلقى بثقله على الجـــدار فى أول المنعطف ، وكان يترنح ، وحاله تنذر بالانهيار فى أية لحظة ، وفتح عينيه بجهـــد صوب القادم كالقدر ، حاول كثيرا أن يتحرك فتبددت محاولاته فى الظلام ، كما بعثرت ذكرياته ، ولاح على شعاع الفانوس وجهـــه الكالح المغبر الفظ كالنائم ، ولم يكن على جسده الا بقايا جلباب ممزقة ، وباطنه المجنون يحترق رغبة فى الحقنة المحرمة ·

ـ حنظل ·· تعال ··

آه · هذا النداء المشئوم تعقبه الصفعات واللكمات ·· وبصـــوت يائس مكروب توسل قائلا :

ـ رحمة لله يا حضرة الشاويش ··

وقف أمامه حاجبا عنه شعاع الفانوس ، شابكا بندقيته بكتفه فاشتد التصاق حنظل بجدار عطفة شنافيرى · كان يعانى الخوف ويدافع الغيبوبة ويعلن المسكنة ، ولكن ما بال الشـــاويش لم يهدر ولم يلعن ولم يصفع ؟!

ـ أخذت الحقنة ؟

ـ لا وربك ·

ـ لكنك نائم أو كالنائم !

ـ لأننى لم آخذها ··

ـ تعال معى ، المأمور يطلبك !

فتنهد فى صدر مجنون جائع وهتف :

ـ أنا فى عرضك ··

فوضع على منكبه يدا آدمية لا حديدية ولا عسكرية ، فتعجب حنظل دون أن ينبس ، فقال الشاويش :

ـ تعال ولا تخف ··

ـ لم أفعل شيئا !

مضى به برفق وهو يهمس له :

ـ ستجد أن كل شىء طيب ، لا تخف ··

وقف فى حجرة المأمور على بعد مبعدة متر من بابها الذى أغلق وراءه ، لا يتقدم خطوة ، ولا يرفع عينيه الى النظرة التى تستقر عليه من وجه محنك ، والضوء الساطع مسلط على جسده الطينى الذى لا يكاد يستره شىء ، وقد بدا بين الجدران البيضاء الملساء والأثاث الوقور شعبيا متخلفا عن الزمن ، توقع حنظل صاعقة ولكن جاءه صوت المأمور فى نبرة آدمية غير منتظرة ككل شىء فى تلك الليلة :

اجلس يا حنظل ، مساء الخير ··

يا رب السماوات ! ، ماذا جرى للدنيا ؟!

ـ أستغفر الله يا حضرة المأمور ، أنا خادمك !

ولكنه حدجه بنظرة تأنيب وهو يشير بأصبع آمر الى مقعد جلدى ، فتردد كثيرا ، ثم لم ير بدا من الاذعان فجلس على طرف المقعد وهو ينظر الى قدميه الترابيتين ، فى ضخامة قدمى تمثال ، المطمورتين تحت طبقات من القشرة الأرضية · ورغم ذلك لم يصدق شيئا فقال فى ذل :

ـ يا حضرة المأمور ، أنا رجل مسكين ، كثير الخطايا ، ولكن بؤسى أفظع من خطاياى ، والرحمة عند الله مفضلة على العدل ··

فقال المأمور بنبرة جادة رقيقة فى آن :

ـ اطمئن يا حنظل ، أنا عارف أنك أخطأت كثيرا ولكنك قاسيت أكثر . وأنت أدرى بذنوبك ، والشاويش معذور فى قسوته عليك فالقانون هو القانون ، ولكن جدت أمور أوجبت تغيير المعاملة . تغير كل شىء ، ونحن كما أن لنا جانبا عسكريا فلنا فى ذات الوقت جانبنا الانسانى ..

وجعل ينظر الى المأمور بذهول وهو يغالب بمشقة سلطان الغيبوبة فرمقه الرجل برثاء وقال :

ـ صدقنى يا حنظل ، صدق كل ما تسمع وما ترى ، رأسك لا يقوى على التركيز لأنك لم تحقن ؟ ، نفد آخر نقودك ولم تحقن ، وتاجر السم لا يرحم ويطالب بالدفع المقدم ، لكنك ستشفى من هذا كله ..

فقال حنظل بصوت باك :

ـ أنا مسكين ، حياتى حظ عاثر ، كنت قويا فضعفت ، وبياعا فأفلست ، وأحببت فتلوعت ، وأدمنت ، ثم تسولت ..

ـ ستخرج من المصحة رجلا جديدا ، ولى معك لقاء آخر ..

وفى باحة القسم أحاطت به مجموعة من العساكر فبحكم العادة تكور جسده كأنما يتلقى ضربة ، ولكنهم ابتسموا اليه ، انفرجت الشفاه الغليظة تحت الشوارب الثائرة ..

ـ أنتم ؟!

ـ نعم يا حنظل ، كل شىء تغير ..

ـ بالشفاء يا حنظل ..

ـ ليعف الله عما سلف ..

وحمل وهو بين النوم واليقظة ، وسرعان ما استسلم للنوم فى عربة راحت تتأرجح به الى ما لا نهاية . وفتح عينيه على حجرة غريبة ، رآها بياضا ناصعا وضوءا باهرا كما رأى وجها حانيا ،

وشعر بضعف وتقزز ، وغثيان ، ووحـــدة فى الأعماق ، وخوف ؛ فتوسل قائلا :

ـ الحقنة ، الحقنة يا عم متبولى ..

وداعبت أذنه ضحكة رقيقة ، وســطعت أنفه رائحة نفاذة ، وعانى جوعا فى الرأس وفى الحواس ، وتشققت أركان رأسه ، ثم غاب عن الوجود . وغادر حنظل المصحة رجلا جديدا كما وعـــد المأمور . تجلت صــورته الطبيعية لأول مرة ورفل فى جلباب أبيض فضفاض ، وحلق ذقنه فتبدت قوة شاربه وانتعل مركوبا أصــفر فاقعا . ووضح وشم الأسد فوق معصمه ووشم العصفورة عنـــد سوالفه تحت لاسة مزركشة . ومضى به شاويش كالصديق ، كل شىء صديق ، فتراءت بشرته ســمراء صافية تحت الشمس . وما تمالك أن ضحك ، وقال لنفسه ان وزنه سيخف بعد النظافة ، وكان صـاحيا واعيا يرى الأشياء ويسمع الأصــوات ويحب الشاويش ولا يستشعر فى جوفه الألم . وامتلأ ثقة بالنفس حتى خال أن بقدرته أن يطير ، وصدق ما يحيط به ، فلم يدهش عندما أقبل عليه العساكر مهنئين ، وتصـــافحوا بحرارة ومودة فى شبه مظاهرة فى باحة القسم . ولم يدهش كثيرا عندما رأى المأمور يقف لاستقباله ، ولكنه تأثر جدا ، وبروحه المتواضعة ارتمى على يده يريد أن يقبلها ولكن المأمور تلقاه بين ذراعيه وشد عليه برحمة فتذاوب خجلا وامتنانا وفاضـــت عيناه بالدمع . وأجلسه الرجـــل على المقعد وعاد الى كرسيه وراء المكتب وهو يضحك ضحكة رطيبة صافية ، وقال :

ـ مباركة عليك الصحة والعافية .

فاغرورقت عيناه فاستطرد المأمور قائلا :

ـ الآن تستطيع أن تبدأ من جديد ..

فقال بدموعه المنهمرة :

ـ بفضل الله وبفضلك ··

ـ لا تبالغ فالفضل لله وحده ·

وفتح المأمور دفترا بين يديه وأمسك بالقلم وخط عبارة فى رأس صفحة بيضاء ، ثم قال بهدوء وهو يرمقه بنظرة هادئة وعميقة كضوء القمر :

ـ اطلب ما تشاء يا حنظل

فارتبك الرجل ولم يحر جوابا · تحركت شفتاه فتحرك شاربه الفطرى ولكنه لم يحر جوابا ، فحثه المأمور قائلا :

ـ اطلب ما تشاء يا حنظل ، هذا أمر !

ـ ولكن ··

ـ لا لكن ، اطلب ما تشاء ··

فقال فى تردد :

ـ أطلب الستر ··

ـ أفصح ، اطلب ما تشاء ، هذا أمر ··

تذكر حنظل دعاء أمه ، وحكايات الليل ، وأنغام الرباب ، ثم ضحك قائلا :

ـ كنت أسرح بعربات الفاكهة !

فقال المأمور ويده تكتب فى الدفتر :

ـ دكان فاكهة بالحسينية ، رفوف مزدوجة ، كهرباء لحسن العرض ··

فتساءل فى ذهول :

ـ والنقود ؟!

ـ لا تشغل بالك ، هذا أمر يخصنا ويخص الجميع ، تكلم ماذا تطلب ·· انه أمر !



ووجد حنظل شجاعة جديدة ، مستمدة من شـــخصه الجديد ودكان الفاكهة ، فقال بصوت متهدج :

ـ سنية بيومى بياعة الكبدة ، الحق انى ٠٠

فقال المأمور ويده لا تكف عن التسجيل :

ـ لا داعى للشرح ، كله معلوم يعرفه عسـكرى النقطة ، وكل عسكرى ، وخفير السوق ، سنية شابة مليحة وجريئة ، ولم تتزوج بعد رغم ما كان ، وفى وقت ما كانت أفتـــك بك من الهـوزبيين ، وتمادت فى قسوتها فاشتدت حالتك ســوءا ، وهجرتك ، لكنهـــا ستعود اليك ، لتكن دكان فاكهة وكبدة ، سيكون ذلك شيئا فريدا فى الحسينية على مثال محال البقالة الراقية جدا ، غيره ؟٠

مال رأسه من التأثر ٠ وحلمت عيناه بأديم أخضر تنبثق منـــه ورود حمراء مطوقة بدوائر من البنفسج ، وطنت فى أذنه نغمـة تردد : « يا منية القلب قل لى » ، لكنه رأى بقعة سوداء كسحابة من الذباب فاقشعر بدنه وقال باشفاق :

ـ أخشى ألا تدوم صداقة العساكر يا سيدى المأمور ، وانه وان يكن لشقائى الماضى أسباب كثيرة فان العساكر كانوا من الأسباب الهامة فى ذلك ، طالما طاردوا عربتى لسبب ولغير ما سبب وصادروا رزقى وضربونى ، وفى مسألة سنية بالذات فان أول من لعب بعقلها كان العسكرى حسونة !

فارتفعت الضحكة الرطيبة الصـافية مرة أخرى وقال المأمور بلهجة لا تدع مجالا لشك ،

ـ لن تجد فى العساكر عدوا واحدا لك ، هم من اليوم والى الأبد أصدقاؤك المخلصون ، إطلب ما تشاء يا حنظل ، هذا أمر ٠

وثمل حنظل بسكرة شجاعة لم ينعم بها حتى أيام الفتـونة ، فقال :

ــ أمثالى من الفقراء كثيرون لعلك يا حضرة المأمور لا تعرفهم ..

فقاطعه قائلا ويده تكتب دون انقطاع :

ــ أعرف كل شيء ، دلنا عليهم ، وسيكون لكل دكانه وامرأته وصداقة العساكر ، سيتحقق هذا كله فاطلب ما تشاء ، انه أمر .. ،

فضحك حنظل ضحكة مجلجلة وشبك راحتيه وشد عليهما وهو يقول :

ــ كأنني فى حلم !

ــ الواقع نوع من الحلم ، والحلم نوع من الواقع ، اطلب ما تشاء ، انه أمر ..

فتنفس فى ثقة وامتلاء وتساءل :

ــ كم من المسجونين من يستحق السجن حقا ؟!

فقال المأمور ويده تجرى على الصفحة :

ــ سيخرج من السجن كل من لا يستحق السجن حقا ولو فرغت السجون !

فهتف حنظل فى نشوة :

ــ ليحيا العدل ، ليحيا المأمور !

وشهد حوش بيت حنظل بعطفة الشبانيرى حفلا فريدا حضره المأمور والعساكر والفقراء وطلقاء السجون . وارتدت سنية فستانا برتقاليا وتلفعت بشال أخضر فلم يظهر من جسدها البض الا معصم محلى بأسورة ذهبية وأسفل ساق مطوقة بخلخال فضى بشراريب من أهلة . وكانت تقدم بنفسها الشراب ، شراب التمرهندى والكركديه . وثمة فرقة موسيقية عليها مسحة من شارع محمد على احتلت ركنا وراحت تحيي القادمين . واستمتع كل شخص بحريته حتى العساكر

غنوا ورقصوا تحت بصر المأمور ، ثم وقف مقرىء بين مذهبجية ومضى يتغنى بمديح الرسول مترنما :

لما بدا لاح منار الهدى

فتضاعفت آهات الطرب من صدور الفقراء والمساجين والعساكر وزغردت سنية زغرودة كأنما تصدر عن ناى · وفى ختـام الحفل وقف المأمور وخاطب الجميع قائلا :

ــ أول الغيث قطر ، ثم ينهمر ، طاب ليلكم ·

وزغردت سنية مرة أخرى ، وأخذ المدعوون فى الانصراف عند الفجر ، والديكة تسبح لله ، والصمت يسبح ··

واستقلى جنظل على الاريكة ليرتاح بعد عناء فجلست سـنية عند رأسه وراحت تداعب قصة شعره · كان سعيدا مطمئنا راضيا لا يريد لشىء نهاية · وقال برقة :

ــ أنت أصل الخير كله ··

فامتدت أصابعها الى سوالفه كأنما تزقق عصفورة الوشم فعاد يقول :

ــ جميع ما حصل لا أعتبره معجزة ، المعجزة أن قلبك لان بعد ما كان ·

وانسابت يدها الى خـــده فذقنه ثم استكنت على حنجرته ، واستسلم لمداعباتها ، وود فى أعماقه الا يكون لشىء نهاية ، غير أنه انتبه على احساس غريب ، يشبه الضغط على حنجرته ، واشـــتد بدرجة خرجت عن مألوف كل مداعبة · وقرر أن يطلب اليهـــا أن تخف من ضغط يدها ولكن صوته لم يخرج واشتد الضغط ، ومد يده ليزيح يدها عن عنقه ولكنه شعر بكابوس يرزح فوق صدره ، وبثقل سمج ، زكيبة رمل ، أو قطعة جدار هوت فوق رأسه · أراد أن يتأوه ، أن يقوم ، أن يتحرك ، فلم يستطع · وحرك رأسه بعنف ليتخلص من الكرب فاحتكت بالأريكة ، بشىء يشبه الأرض ، التراب،

بل ثمة طين أيضا ، وغمره شعور جديد فى درجته وطعمه وكآبته ·
وسمع صوتا يعرفه يصيح به متكهما :

ـ لم يبق الا أن تنام فى عرض الطريق !

ما أشبهه بصوت العسكرى ! · العسكرى القديم بصوته الخشن المنذر بالمتاعب · ثم انه يختنق · يد سنية لا تريد أن ترحمه · وفجأة رفع الجدار عن صدره فاعتدل جالسا وهو يئن فى الظلام · تخايل لعينيه شبح عملاق يحجب عنه ضوء الفانوس كأنما يمتد فى الفضاء حتى النجوم · وديكة الفجر تصيح ، والبندقية تطل من فوق كتف الشبح · وفوق صدره هو ينداح الألم فى الموضع الذى تخلى عنه الحذاء الغليظ ، وهتف :

ـ أين عهد المأمور يا شاويش ؟!

فركله بلا رحمة وصاح به :

ـ عهد المأمور ! ، يا مجنون يا مدمن ، قم ع القسم ··

ونظر حوله فى ذعر وذهول فوجد طريقا نائما ، وظلمة شاملة ، وصمتا ، ولا حفل ، ولا أثر لحفل ، ولا سنبة ، ولا شىء ··

مندوب فوق العادة

كنت أراجع الصحف اليومية ، وهو ما أبدأ به عملى عادة كل صباح ، عندما فتح الباب دون استئذان عن رجل غريب ٠ كان هائل المنظر لطوله وضخامته ، فخم البدلة ، وطربوشه الطويل الغامق يضفى على وجهه الأبيض نصاعة ، وفيه وجاهة تؤكدها نظـــارة كحلية وشارب غزير مربع كساه المشيب ٠ كان أيضا فى الســتين أو نحوها لكنه تقدم من مكتبى فى حركة قوية ثابتة قابضــة يمناه على منشة عاجية بيضاء وهو يقول بصوت حلقى غليظ :

ـ صباح الخير ، مكتب الصحافة ؟

فأجبته ولم أفق من صدمة اقتحامه :

ـ نعم ، صباح النور !

ـ أظنه تابع لمكتب الوزير ؟

ـ نعم ٠٠

فأخرج حافظته ، واســتخرج منها بطاقة أعطاها لى ٠ نظرت فيها فقرأت :

اسماعيل بك الباجورى

مستشار برياسة مجلس الوزارة

انفجرت « الرياسة » فى رأسى ، ولم يكن قد مضى على خدمتى الا عام أو دون ذلك بأشهر ، ووقفت باحترام وأنا أبتسم كالمعتذر ، وقلت بتأثر ظاهر :

ـ تفضل بالجلوس يا فندم ، أنا فى خدمتك !

لكنه مشى موغلا فى الحجرة الصغيرة المستطيلة حتى وقف وراء

النافذة فى نهايتها يطل على ميدان الأزهار ، ثم عاد الى مكتبى وهو يسأل :

ــ ألم يحضر معالى الباشا ؟

ــ كلا ، معاليه يحضر حوالى العاشرة ٠

ــ ولا مدير مكتبه ؟

ــ المدير يحضر حوالى التاسعة ٠٠

فانحرف جانب فيه الأيسر فى امتعاض ، ثم مد يده الى سركى الوارد وراح يقره بسرعة ثم قال :

ــ خانات كثيرة لم تسدد ، هاك شكوى لم يرد عليها منذ عشرين يوما !

فانقبض صدرى وأنا أتساءل على وجه من أصبحت اليوم ، ثم قلت :

ــ انى أوزع الشكاوى المنشورة فى الصحف على الادارات المختصة فى يوم ظهور الجريدة ، والادارات هى التى تتأخر فى الرد ٠٠

ــ ولم لا تستعجلها ؟

ــ أستعجلها طبعا ، ولكن بعض الردود يستدعى التحرير الى التفاتيش فى الأقاليم ٠

فهز رأسه فى امتعاض ثم أشار الى الباب وهو يقول بلهجة آمرة :

ــ اتبعنى من فضلك ٠٠

وسار فى ردهات الوزارة وأنا أسير الى جانبه متأخرا عنه خطوة من باب التأدب ، من ردهة الى ردهة ، حتى أخذنا فى طريق العودة وهو لا يمسك عن نثر الملاحظات :

ــ مكاتب خالية ، أين الموظفون ؟! ، حتى السعاة ، والفراشون كالذباب الغائم ! ، ما هذه الزكائب المحشوة بالأوراق ؟ ، وهذه

الزبالة ؟ ، وتلك الأكداس المكدسة من الملفات كالمقابر ، ورائحة الزيت والبصل ؟ ، ما شاء الله ٠٠ ما شاء الله ٠٠

وجعلت أبدى عن أسفى بهز الرأس والتبسم الحزين وأنا أسأل الله أن ينهى اليوم على خير ، واذا به يقول :

ــ كل شيء فى غير محله ؟٠٠ لو يعلم دولة الباشا !٠

وعدنا الى الحجرة فوقفت وراء مكتبى على حين جلس على الكنبة فى شبه استلقاء ثانيا ساقه فوق ركبته ، والظاهر أنه رحم ارتباكى فقال لى :

ــ اجلس ٠٠

فجلست متشجعا بنبرة رقيقة انتزعتها انتزاعا من غلظة صوته ، ومضى يتفحصنى من وراء نظارته الكحلية فى غير مبالاة ثم سألنى :

ــ من الجامعة ؟

ــ نعم ٠٠

ــ لم توظفت ؟

فلم أحر جوابا ٠ فقال :

ــ قل لأعيش ! ، كلنا يريد أن يعيش ، لكن الحياة تجرى على غير ما يجب !

فخفضت رأسى موافقا ، ولا شيء أحب الى من أن يحضر مدير المكتب ليخلصنى من موقفى الرهيب ٠

ــ أنا مكلف بعمل بحث شامل ، مهمة شاقة ، ولكن أهل ثمة فائدة ؟

تأثرت جدا لتعطفه بالبوح بمهمته الخطيرة وازددت فى الوقت نفسه حزنا فقلت :

ــ ستجيء الفائدة حتما على يديك ٠

فتثاءب لدهشتى ، وحل صمت مقلق ، وكان يبدو عظيما جدا ،

ولعله ضاق بالصمت والانتظار فراح يتحدث وكأنما يحدث نفسه هذه المرة :

ـ على المرء أن ينشد الطمأنينة والصفاء ولكن كيف يتأتى هذا ؟!

فقلت وأنا في شك من سلامة تدخلي في الحديث :

ـ ربنا يهب سعادتك الصحة ٠

فأنزل ساقه عن ركبته قائلا :

ـ الصحة ! ، ما هي الصحة ؟ ، هي كمال التوازن والتوافق والتعاون في الكائن ، ولكن هيهات أن تتحقق اذا كانت الصحة العامة معتلة ، خذ مثلا صحة الوزارة ! ، خانات لم تسدد ، موظفون لا يحضرون ، روتين ، وما الرأى في هذا الغلاء الفاحش ؟

فقلت وأنا أتابعه بجهد وأى جهد :

ـ شيء لا يطاق ٠٠

ـ العالم أيضا صحته معتلة ، هتلر ورم خبيث ، والحلفاء ورم آخر ، والأوقاف عندكم لماذا يستحق بعض الأوباش هذه الألوف المؤلفة ؟

فقلت رغم دبيب الدوار في رأسي :

ـ فلنأمل خيرا. ما دام دولة الباشا مهتما بهذه المسائل ٠

فنهض بغتة وهو يقول :

ـ ولكن متى يأتي الوزير ؟ ٠٠ الساعة العاشرة ! ، ومتى يأتي مدير مكتبه ؟٠٠ الساعة التاسعة ٠٠

ونظر في الساعة ثم جلس مكفهر الوجه ٠ واتجهت عيناه نحو التقويم المثبت بالجدار ، الأربعاء ٢ يونية ، ٢٩ جمادى الأولى ، ٢٥ بشنش ، وتساءل في ملل :

ـ كم ورقة يجب أن تمضى حتى تصبح الصحة على ما يرام ؟

ثم حدجني بنظرة متحرشة هرب لها قلبي ، ولكن سرعان ما حلت محلها نظرة دعابة وهو يسأل :

ـ ماذا تريد من الدنيا ؟

فارتبكت مؤثرا الصمت ، ولما آنست انتظاره لجوابى تكلمت يدى باشارات مبهمة سابقة لسانى ، ثم قلت :

ـ اشياء كثيرة !

ـ تكلم !

فاستجمعت شجاعتى قائلا :

ـ مرتب حسن ..

ـ والصحة ؟..

ـ لا بأس بها ..

ـ وكم من النقود تريد ؟

ـ ما يكفينى ..

ـ يكفيك لأى شىء ؟

ـ حسبى الضروريات ، والكماليات الهامة ، وأن أتمكن من تكوين أسرة ..

ـ والآخرون ألا ينبغى لهم ذلك أيضا ؟

ـ نعم لم لا !

ـ عند ذاك ترتاح النفوس من الانفعالات الخبيثة ..

فقلت بارتياح حقيقى :

ـ نعم يا فندم ..

فقال بحدة ساخرة :

ـ كلا ! ، لا يكفى هذا كله ، سيظل هناك هتلر ، وتشرشل أيضا ، هذه هى العقدة المحيرة ، لقد كلفت بالبحث ولكننى كلما وجدت حلا لمشكلة عرضت مشكلة أخرى ، وكلما أزلت دملا ظهر دمل جديد ، كأن الرحلة يجب أن تشمل العالم كله ..

فغمغمت بذهول :

ـ العالم !

ـ نعم العالم ، راقب آثار الحرب فى بلادنا ان كنت فى حاجة الى دليل ، أمور كثيرة معقدة ، ومشاكل لا حصر لها ، فكر فى أن تنعم بالجبال فى سويسرا فسيقال لك انها مهددة باجتياح الجيوش الألمانية ، أو أن تستظل بشجرة بوذا فى الهند فستجد جوا مشحونا بالتعصب والانفجار ، وقد تتطلع الى زيارة موسكو ولكنك لن تعود ، والغلاء ؟ ، ألم يبلغ حدا لا يتصوره عقل ؟

ولهث خيالى فى اعياء ، ولم أعد أفهم شيئا ، ولكنى عكفت على النزر اليسير الذى وجدت له معنى فقلت :

ـ الغلاء فاحش جدا ، والطماطم نادرة الوجود ، أما البطاطس فبات أسطورة ..

ولاح فى نظرته الكحليـــة تفكير ، وشى من الحزن والفتور ، فتساءل :

ـ اتحل هذه المشاكل اذا حددنا المرتبات ؟

ـ أى مرتبات يا فندم ؟

ـ يصدر مرسوم بأن أعلى مرتب لا يجوز أن يزيد عن كذا .

ـ كذا ؟

ـ الا تنتشر تبعا لذلك الطماطم ؟ ، ويظهر البطاطس ، وتهبط أجور المساكن ؟

ـ ولكن الدنيا ليست موظفين فحسب ، هناك تجار ، ورجال صناعة وأصحاب أراضى ، وهناك أيضا الأجانب !

فهز رأسه كالمتعب وقال :

ـ ويوجد هتلر ، وموسولينى وتشرشل ، وأكاذيب لا حصر لها ، وصرخات زنوج تصم الآذان ..

يا له من شخص غريب ، ليس له جبروت المستشارين ، ولا جلال الرياسة المخيف ، بل وفيه جانب لطيف لا يكاد يفصـــله عن ..

ماذا أقول ؟ عن التهريج الا خطوة ؟!، بيد أنى قررت أن أستمسك بالحذر الشديد حتى النهاية ٠ وقلت برقة ورجاء :

ــ هـــذه أمور محيرة ، ولا سبيل الى حل مشاكلها ، أو سبيل طويل لا يعلم مداه ، ولكن هناك سبيل ميسور قريب المنال لو اقنعت صاحب الدولة مثلا بزيادة علاوة الغلاء ؟٠

فحدجنى بنظرة استغراب وهو يقول :

ــ أتريد أن تحول مهمتى الخطيرة الى مجرد مسـعى شخصى لتحسين حالتك ؟٠

فاحترق وجهى بالخجل وقلت متلعثما :

ــ لا أقصد ذلك ولكن ٠٠

فقاطعنى بقوة :

ــ ولكن عيبنا أننا نفكر فى أنفسنا ولا شىء غير أنفسنا ٠٠

ونظر فى الساعة وهو يقول متسخطا :

ــ الوزير فى الساعة العاشرة ، مدير المكتب فى التاسعة ، ضاع سدى جميع ما قصدته من التبكير !

وتذكرت بغتة واجبا فاتنى لشدة ارتباكى فهتفت :

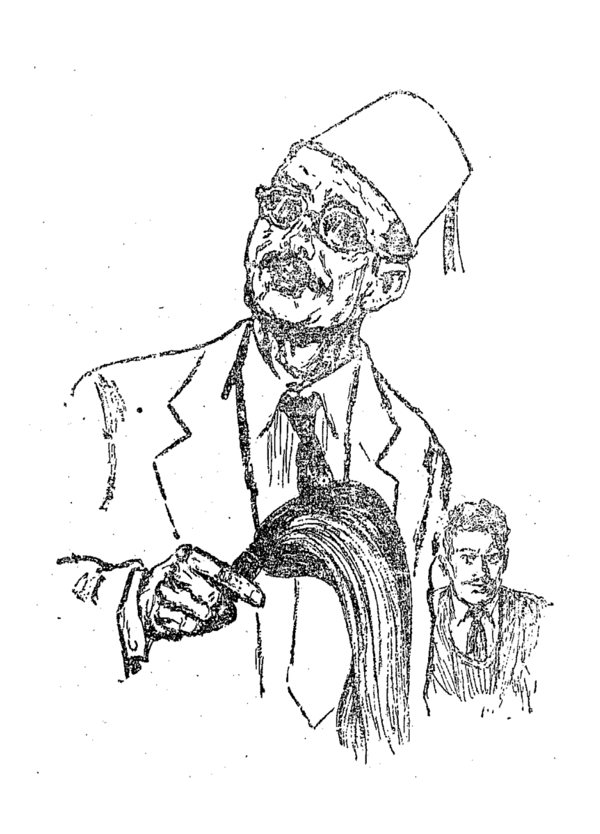
ــ لم أطلب لسعادتك القهوة !

ومددت يدى نحو الجرس ولكنه أوقفها بحركة آمرة وساخطة وقال بحدة :

ــ نحن فى مقبرة لا قهوة !

ثم بشىء من الهدوء : :

ــ قلت ان عيبنا أننا نفكر فى أنفسنا ولا شىء غير أنفسنا ، الحق ان لى من القدرة ما أستطيع به أن أبلغ الصفاء ، على فقط أن أعتزل العالم وهمومه ، وهو صـــفاء حقيقى أسمع فى ســـكونه الأبيض موســـيقى النجوم ، على فقط أن أعتزل العـالم وهمومه ، لكنى لا أستطيع ، لا أريد ، للهموم أيضا أنغامها التى يلتقطها القلب ،



فاما صحة عامة أو لا صحة على الاطلاق هذه هى عقيدتى النهائية ، ولذلك كلفت بالمهمة ٠

وراح يعبث بشعر المنشة فداخلنى شعور بالحيرة ، وتساءلت عما يعنى الرجل ، ماذا وراء هذه النظارة الكحلية ؟ ٠ وعند ذاك فتح الباب وظهر الساعى وهو يقول لى كعادته : :

ـ البك المدير وصل ٠

واستأذنت من المستشار فمضيت من فورى الى المدير وقلت له :

ـ اسماعيل بك الباجورى المستشار برياسة مجلس الوزراء فى مكتبى ٠

وانتفض المدير واقفا وهو يتساءل :

ـ اسماعيل بك الباجورى ؟

وفى اللحظة التالية كان يصافحه باحترام بالغ مقدما نفسه اليه ، ثم ذهبا معا الى حجرة مدير المكتب ولبثت وحدى أفكر ، ولما يذهب عنى روع المقابلة وشجونها ٠

وواصلت عملى فى مراجعة الصحف وأنا مشتت الفكر ، لا يتركز انتباهى فى شىء مما بين يدى ٠ ومضت نصف ساعة أو نحوها ، واذا بالباب يفتح ويدخل مدير المكتب مهرولا ٠ أقبل نحو التليفون وهو يسألنى :

ـ هل تعرف هذا المستشار ؟

فأجبت نفيا ٠ وأدار قرص التليفون :

ـ آلو رياسة مجلس الوزراء ؟ ، أنا على عباس مدير مكتب وزير الأوقاف ، من فضلك هل يوجد فى الرياسة مستشار اسمه اسماعيل الباجورى ؟

ـ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ـ سعادتك متأكد يا فندم ! ، عندنا شخص بهذا الاسم وهذه الصفة كما هو واضح فى بطاقته ٠٠

ـ . . . . . .

ـ آسف على ازعاجكم ، وسأفعل ما أشرتم به ..

وضع السماعة دون أن ينظر الى وجهى الضائع ثم أدار القرص ثانية :

ـ آلو ، سعادتك المأمور ؟

ـ . . . . . .

ـ على عباس مدير مكتب وزير الأوقاف ، عندنا شخص ينتحل شخصية مستشار بالرياسة ، يتحدث حديثا غريبا ويطلب مقابلة معالى الوزير ، وبالنظر للظروف الدقيقة التى تمر بها البلاد فأخشى أن يكون من الارهابيين ..

ـ . . . . . .

ـ الواقع أن مظهره مخالف لهذا النوع من الشباب ، ولكنى أخاف المفاجآت ..

ـ . . . . . .

ـ فى انتظارك يا فندم ، أرجو السرعة ..

وأعاد السماعة وغادر الحجرة وأنا فى حال ، ووضح الأمر فى القسم . لم يكن الرجل ارهابيا ولكن كان به لطف . واستدعينا أسرته ، واتخذت الاجراءات المتبعة ، وقد سمعته وهو يقول للمأمور فى كبرياء غاضب :

ـ الحق على ، ما كان أسهل أن أنعم براحة البال ، الحق على ..

صورة قديمة

فكرة ومضت فجأة فوعدته بالخلاص من حيرته . ومضت فى رأسه عندما مرت عيناه بالصورة المدرسية القديمة . كان يعانى حيرة البحث عن موضوع جديد للمجلة كما ينبغى لصحفى مطالب بجديد كل يوم . وفجأة ومضت فكرة . وكانت الصورة معلقة بمكانها من حجرة الجلوس منذ أكثر من ثلاثين عاما ، لا تنطق ولا توحى بشىء ولا تكاد ترى ، ولكن بدا أنه آن لها أن تتكلم . ركز انتباهه بحماس فى الصورة التى كاد يمحوها طول البقاء . صورة السنة النهائية بالقسم الأدبى من الجيزة الثانوية عام ١٩٢٨ . ما الرأى فى دراسة صحفية عن أصحاب هذه الوجوه الفتية ؟ . المدرسة والحياة ، ١٩٢٨ و ١٩٦٠ ؟ ، فكرة طيبة من ناحية المبدأ ، فهل يستطيع أن يظفر بحقائق تصلح أساسا لبحث طريف ؟ ! . كم من أعوام مضت دون أن يلقى نظرة على الصورة ؟ . وكم من معالم فيها انطوت الى غير رجعة ، كهذه الطرابيش ، وهؤلاء المدرسين الانجليز والفرنسيين ! . وكانت مجرد نظرة الى أى وجه كافية غالبا لتذكيره بصاحبه وان غاب عنه اسمه ، وان جهل كل الجهل مصيره ، ولا أحد بينهم تربطه به اليوم علاقة ، حتى ولا هذا الفتى المثير الذى جاوره فى المسكن زمنا طويلا ، وتفحص الوجوه مبتدئا بالصف الأعلى فمر بوجهين لا معنى لهما ، ثم وقف عند فتى كان من أبطال كرة القدم ، ولقى حتفه فى مباراة بين الجيزة ومدرسة أخرى ، حادث لا ينسى ، وتراءى ضحيته فى الصورة براق العينين معتدا بنفسه منحرف جانب الفم فى شبه ابتسامة ، وهو اليوم عظام . وواصل مسيره من وجه الى وجه حتى وقف عند وجه نحيل مستطيل ، ذكره بموقف صاحبه فوق سلم سكرتير المدرسة وهو يخطب خطبة ملتهبة داعيا

الطلبة الى الاضراب احتجاجا على تصريح ٢٨ فبــراير • والى جانبه مباشرة برز وجه وجيه يحمل طابع الأناقة والسلالة الممتازة فورد اســم الأسرة بسرعة على ذاكرته ـ الماوردى ـ فسجله فى مذكرته واثقا من سهولة الاهتداء اليه ، فضــلا عن أنه كان نجما لا معا فى الحياة السياسية منذ عشرة أعوام ، فهذا أول عنصر هام فى مشروع بحثه • وجرت العينان على الوجوه واحــدا بعد آخر فلم ينطق وجه أو يبين حتى بلغتا وجها ليس من السهل نسيانه ، فهو رمز التفوق المدرسى بكل سحره ، وأول الفصل ، وأول كل فصل ، وأول المدرسة ، الأورفلى وبفضل التفوق وغرابة الاســم بقى فى الذاكرة • وفى كلية الحقوق كان له شــان ، ثم عين فى النيــابة العمومية أيام كان التعيين فيها حدثا هاما ، سيسهل عليه الاهتداء اليه بالرجوع الى وزارة العدل ، وهو ثانى عنصر هام فى دراسته ، الأورفلى بعد الماوردى • وتحداه وجه جديد بذكرى دامية ، مشاجرة نشبت بينه وبين صاحبه فى حوش المدرسة وان لم يذكر من أسبابها شيئا على الاطلاق . وتتابعت الوجوه صــامتة صمت الحجر حتى جاء الوجه المثير ، الجار القديم ، حامد زهران مدير شركة « الهرم المدرج » • ابتسم ابتسامة باردة • هذا هو فتى العصر ! • ما زال يذكر بوضوح كيف ترك الجيزة الثانوية ســاقط بكالوريا ، وكيف • التحق بخدمة وزارة الحربية بالكفاءة ، ولم تنقطع علاقته به الا منذ عشرة أعوام حين ترك هو عطفة أبو خوذة بعد أن فتح الله عليه فى الصحافة • وتراءت اليه أخبار عن استقالته من الحكومة ليشغل وظيفة سكرتير لمدير شركة الهرم المدرج ، ثم علم آخر الأمر بتوليه منصب المدير ٥٠٠ ج•م• فى الشهر • ياله من معجزة سواء فى طفرته الجنونية أو فى تفاهته التى لا يشك هو فيها ، على أى حال سيكون عنصرا هاما وذا دلالة فى دراسته • دراســة طريفة كما يأمل • وستعتمد على تحليله واسـتنباطاته أكثر من اعتماده على

أحاديث أبطالها المجهولين اذ أن الطريف حقا ليس أشخاصهم ولكن دلالتهم الاجتماعية • ومهما يكن من أمر فليؤجل تقرير الصورة النهائية للبحث حتى يجمع مواده ..

وبدأ يطلب مقابلة عباس الماوردى فى عزبته بقليوب بعد أن علم باقامته فيها عن طريق دائرة الماوردى بميدان الأزهار . وفى الموعد المحدد كان يقطع الممشى المحفوف بأصص الورد على الجانبين الى السلاملك • كان القصر تحفة من طابقين وسط حديقة مساحتها فدانان اكتظ أديمها بأشجار المانجو والبرتقال والليمون وأعراش العنب ومربعات ومثلثات ودوائر لا عد لهسا من الأزهار والخضرة والجداول . وهو قائم كالمارد وسط فضاء من الحقول يترامى حتى الأفق ، يغشاه الصمت والهدوء والامتثال ، وتتراءى عن بعد فوق سطحه أجساد منحنية ، بدت ضائعة فى النبات والفضاء • وأقبل عليه عباس الماوردى يرفل فى عباءة فضفاضة ، بوجه ممتلىء مورد وشعر لامع منسرح فوق رأس مستدير كبير ، وفى طوله وعرضه امتداد هائل جعله أشبه بتمثال متلفع بستار قبل ازاحته ! حدجه بنظرة باسمة ، لم تخل من دهشة حذرة واستطلاع ، وقال مرحبا :

ـ أهلا وسهلا بالأستاذ حسين منصور •

وتصافحا ثم جلسا وهو يقول :

ـ انى أتابع نشاطك الصحفى باعجاب ، وأذكر به زمالتنا المدرسية ، وان كنا لم نلتق منذ افتراقنا فى الجيزة الثانوية ••

فقال حسين باسما :

ـ تقابلنا مرة خطفا فى البرلمان عام ١٩٥٠ أو ١٩٥١ ••

فتساءل بحاجبيه « حقا ؟ » ، واستسلما مليا لذكريات المدرسة ، ثم فاتحه بمقصده من الزيارة :

فقال عباس برجاء :

ـ أليس من المستحسن أن تتركنى فى حالى ؟!

ولكن حسين قال متحمسا :

ـ لست من رأيك ، هى دراسة قد تكون خطوة أولى لمتابعة جيل بأسره ، ولن أنشر كلمة عنك قبل الرجوع اليك ، أعدك بهذا ، ولعلى أستغنى عن ذكر الأشخاص كلية ٠٠

لم يعترض وان لم يبد متحمسا ٠ ولم يعلن وجهه عن شىء حتى تساءل حسين منصور بقلق عما وراءه ٠ ترى هل آلمه الموقف وما أثار من ذكريات ؟! مهما يكن من أمر ثرائه اليوم فقد كان بالأمس مليونيرا بلا جدال ، وكان نجما سياسيا بازغا ، نجح فى الانتخابات بالتزكية بفضـــل جاهه ، ورشـــحته الأقاويل للوزارة فى أواخر ١٩٥٠ ٠

ـ انى أقيم هنا بصفة دائمة ، ولذلك أرسلت ابنى الجامعى الى عمته بالقاهرة ، ولا أكاد أغادر العزبة الا فيما ندر ٠٠

ولانت فرامله فاستفاض حديثه ٠ قال انه يزرع أرضـــه بنفسه مستعملا أحدث الآلات الزراعية ، وانه يعنى عناية خاصـة بتربية الماشية والدواجن ، وأنه أعد لأوقات الفراغ مكتبة كبيرة ، واختار ركوب الخيل هواية ورياضة ٠ انه قابع فى مملكة صغيرة استغنى بها عن العالم كله ، ويود لو يمضى عمره فى حدودها لا يجاوزها ٠ واذا بالآخر يسأله عن الفلاحين ؟

ـ أنا فلاح أيضا ، وكذلك كان أبى ، ولا أجد صعوبة فى التعامل معهم ، انهم قوم طيبون ٠٠

وعاد حسين يتساءل ولكنه عدل عن الموضوع بلباقة :

ـ ألم ترشح نفسك للاتحاد القومى ؟

فقال بتوكيد :

ـ اقترح على كثيرون ذلك ، ولكننى سعيد هكذا !

تخيل حسين تلك الحياة الجامعة للفطرة والحضـــارة معا ،

المنعمة بكل طيب ، المنطـــوية فى عزة وكبرياء ، المتعزية باللذائذ الدنيوية والفكرية ، الهائمة بالليل والقمر والبار الأمريكانى والفرزة البلدى ..

ـ وأصدقاء الماضى ؟

ـ من ؟ ! ، الخاصة يمضـــون عندى نهاية الأسـبوع ، أما الآخرون فلا أدرى عنهم شيئا ..

وأبى أن يتكلم كلمة واحدة عن أمر من الأمور العاملة فلم يلح عليه وسأله :

ـ ألا تشتاق أحيانا الى السينما مثلا ؟

ـ عندى صالة عرض خاصة ، لا ينقصنى شىء !

وعرض عليه الصورة المدرسية القديمة لعله يدله على أحد منها فتصفحها باسما . ثم أشار الى وجه قائلا :

ـ على سليمان ، أصيب برصاصة فى صدره على عهد صدقى ، وبسببها عين فى السلك السياسى بعد تخرجه ، ثم خرج أخيرا فى التطهير ..

وأشار حسين الى صورة حامد زهران فهز الآخر رأسه نافيا ، فقال :

ـ حامد زهران ، مدير شركة ، ٥٠٠ ج.م. شهريا !.

فتساءل بحاجبيه « حقا ؟ » ولم ينبس ، والتمعت عيناه بنظرة ارتياب حائرة ، فأنهى الآخر الحديث .

★★★

وفى وزارة العدل اهتدى الى مقر أول المدرسة الأستاذ ابراهيم الاورفلى المستشار بالجنايات . رصده أمام بناء المحكمة حتى خرج متبوعا بالحاجب الذى راح ينادى التاكسى ، فأقبل نحوه مبتسما ، ورمقه المستشار بنظرة داهشة ، ثم ما لبث أن تعرف عليه فمد اليه يده مصافحا . ولما أدرك مقصده بصفة أولية دعاه الى الغداء معه

فحملهما التاكسى الى مسكنه بشارع ماهر . دخلا مسكنا محترما لكنه عادى فى جملته مما أدهش حسـين منصور ، ولكن عندما تحلق السـفرة معهما ثمانية من الأبناء متقاربى السـن زايلته الدهشة ٠

ــ نشاطك الصحفى يلفت الأنظار حقا !

فشكره وهو يسترق النظر الى جسده النحيل وعينيه اللامعتين المتعبتين ٠ كم تمتع فى المدرسة بصيت التفوق الساحر ؟ ٠ اليوم لا يعلم باسمه أحد خارج دائرة القضاء ٠ ولما ألح على مهمته بشىء من التفصيل قال الاورفلى بسرعة :

ــ لا شأن لعملى بالصحافة ! ، عندما كنت رئيس نيابة وفى أثناء التحقيق فى قضية مشـهورة حاولت الصحافة دفعى الى الأضواء ولكننى أبيت عليها ذلك ، الشهرة لا تعنى شيئا للقاضى ، والمتهمون اما أبرياء يجب صيانتهم ، أو مذنبون لا يجوز التشهير بهم ٠

فقال حسين بثقة :

ــ لا تخش النشر ، انى أقوم بدراسة عن المدرسة والحياة ، واذا شئت رمزت الى اسمك بحرف ، وقد أستغنى حتى عن هذا ٠٠

ــ وهو الأفضل ، ولكن ماذا تريد على وجه التحديد ؟

فحدجه بنظرة اغراء صـحفية وهما يحسـوان القهوة فى الصالون منفردين ، ولم يبق من الأولاد الا طنين يقتحم باب الحجرة المغلق من آن لآن ٠٠

ــ أريد أن أسجل رأيك فى جيلنا وفى هذا الجيل ، أهم القضايا التى فصلت فيها ، فلسفتك عن عملك والحياة ٠٠

ومضى يفصح عن آرائه فى تمهل وفى شىء من الحياء .. كان متحيزا للجيل الماضى كأفراد وللحاضر كفلسفة ، وبدا معجبا بمهمته

راضيا عنها رغم ما تقتضيه من جهد متواصل ، ثم أخذ يروى عجبا من القضايا التى صادفته ٠

ـ أنت كنت الأول علينا دائما ٠

ففكر مليا ، ثم قال :

ـ وكنت أول البكالوريا فى القطر كله ٠٠

ـ أرى فى وجهك صفاء غريبا رغم كل شىء ٠

ـ رغم ماذا ؟

فقال برقة :

ـ ان من يحكم بالاعدام على انسان ٠٠

فقاطعه بتوكيد :

ـ ما دمت مرتاح الضمير فانى لا أعرف للقلق معنى ٠٠

ـ الحق ان صفاءك غير عادى ٠

فضحك عاليا وهو يقول :

ـ اعتبرنى من الصوفية اذا شئت ٠

فتجلت الدهشة فى عينى حسـين وتوثب الى مزيد من المعرفة ولكن سرعان ما بدا على الآخر ما يشبه الندم على ما فرط منه وأبى أن يزيد كلمة واحدة ٠

ـ يبدو أن عملكم شاق حقا ٠

ـ حياتنا تفنى بين أوراق القضايا ٠٠

واضح جدا أنه مرهق بالعمـل ، كما كان وهو طالب ، رهبنة نبيلة وكفاح متصل ، وثمانية أولاد ، وتصوف ٠

ـ مع ذلك يرى الموظفون فى كادر القضاء جنة النعيم ٠٠

فقال مبتسماً :

ـ لنا الجنة !

وعرض عليه الصورة المدرسية فنظر فيها باهتمام ، فأشـــار حسين الى حامد زهران متسائلا :

ـ ألا تذكر هذا الطالب ؟

ـ كلا ..

ـ حامد زهران ، من ساقطى البكالوريا ، مدير شركة ، ٥٠٠ ج٠م٠ شهريا ٠

فحملق فى الصورة كأنما يحملق فى طبق طائر ، فقال حسين :

ـ ظننت الخبر لا يهز الصوفى ٠

وانطلقا معا يضحكان ٠ وسأله عمن يعرف فى الصورة من زملاء الدراسة فجرى بصره عليها ثم وضع أصبعه على وجه فى الصف الثانى وهو يقول :

ـ محمد عبد السلام ، كاتب بالنيابة ، وعمل معى فى أول عهدى بالخدمة فى أبو تيج ولا أدرى الآن عنه شيئا ..

واضطر الى السفر الى المنيا ليقابل محمد عبد السلام فى مقر عمله الأخير ٠ بدا له أكبر من سنه بعشرة أعوام على الأقل ، ووجد فى هيئته الرثة وشعره الأبيض الأشعث وثنيتيه المفقودتين ما يذكر بالخرابات ٠ ولم يتذكره الرجل ولم يقتنع بدعواه حتى أطلعه على الصورة القديمة ٠ وجلسا فى حجرة أستقبال سائبة المفاصل فى شقة قديمة مكتظة بالذرية ٠

ـ لا أعرف أحدا فى هذه الصورة ، طول مدة خدمتى وأنا أتنقل من بلد الى بلد ..

ووجد حسين فى قلبه نغز ألم ، وشعر نحو الرجل برثاء واحترام عميقين ، وسأله عن درجته فقال :

ـ الدرجة الخامسة منذ عام ، اكتب هذا يا أستاذ ، ويا حبذا لو تنشر صورتى مع الأولاد ، ست بنات وأربعة أولاد ، ما رأيك ؟ ، أليس من الجائز أن يكون الله قد أرسلك لى فرجا فى الشدة ؟!

ووعده بكل خير ! ٠ واستدرجه للحديث عن ذكريات العمل ،

ورجاه أن يكتب له بالتفصيل ميزانية أسرته فى عام مثلا ، وأشار الى صورة حامد زهران قائلا :

ـ هذا الزميل القديم يتقاضى اليوم ٥٠٠ ج٠م٠ شهريا ٠

فذهل الرجل حتى خيل اليه أن وجهه ازداد شحوبا ، وتساءل :

ـ ماذا يعمل ؟

ـ مدير شركة ٠

ـ لكن الوزير لا يقبض نصف هذا القدر !

ـ هذا شيء وذلك شيء ٠٠

فتساءل فى دهشة :

ـ كيف وفيم ينفقها ؟

فابتسم حسين ولم يجب فسأله الآخر :

ـ وما شهادته ؟

ـ الكفاءة !

ـ يا خبر اسود ، أنت تمزح ٠٠

ـ كلا ، العبرة ليست بالشهادة ٠٠

ـ العبرة بماذا ؟ ، دلنى كيف يصل انسان الى هذا الحظ ؟ ٠٠ ها هو يقف معى فى صف واحد فى الصورة فخبرنى كيف بلغ هذه المرتبة ؟!

فقال ملاطفا :

ـ هناك شيء اسمه الحظ ٠٠

فهز الآخر رأسه فى حزن وقال بيقين :

ـ لا يوجد عمل فى بلادنا يستحق هـــذا القدر من المال ، والا فلماذا لم نصل الى القمر ؟

وضحك حسين قائلا :

ـ على أى حال أنتم أحسن حالا من الملايين ٠٠

فقال محتجا :

ـ الملايين ..! أنا عارف هذا ، ولكن حامد زهران هو المشكلة ٠

***

ولم يجد صعوبة فى الاتفاق على مقابلة مع جاره القديم حامد زهران ٠ ولما كانت الشركة ليست بالمكان المناسب للمقابلة الحرة فقد دعاه الى مسكنه بالدقى ٠ وتطلع حسين الى الفيللا القائمة فى أحضان الصفصاف باعجاب ، وسرعان ما ذكرته بقصر عباس الماوردى فى عزبة قليوب ، الهندسة الرائعة والحديقة السابغة وأنفاس العز العطرية ٠ ترى أى صورة يتراءى فيها اليوم ذلك الجار القديم ؟ ٠٠ فانه لا يحتفظ منه الا بالعود النحيل والوجه الشاحب ، العابث فى ضحكه ، شبه الجائع ، وهى صورة لا تتلاءم بحال مع هذه الفيللا المثيرة ٠ الله يرحم أيام زمان يا حامد ، أيام الشلن تقترضه بشتى الحيل ولا ترده ولا بالطبل البلدى ٠ ليت الزمن لم يفرق بيننا ، اذن لرأيت عن كثب كيف تقع هذه الزلازل البشرية ! ٠

ـ أهلا حسين ، أين أنت يا رجل ؟

كان فى كامل زيه كالكبراء فى بيوتهم ، وكان الصالون يخطف الأبصار بالأضواء والمرايا والتحف ، أما هو فقد اخضر عوده وجرى فيه ماء الحياة ٠

ـ أنا أحتج على هذه الزيارة النفعية ، كان يجب أن يكون هذا البيت بيتك ، حتى التهنئة الواجبة لم أتلقها منك فى حينها !

وارتبك حسين قليلا لكنه قال بلباقة :

ـ لن يشفع لى عذر !... لذلك أطلب العفو ٠٠

وضحك حامد قانعا ٠ ونسيا فى حديث الذكريات الحاضر وقتا غير قصير ، ثم تحفز الصحفى للعمل ٠ وتجنب حسين الأسئلة التى

قد يشتم فيها تعريض او سخرية قاصرا تحرياته على النجاح وكيف تيسر له ، وعن سياسته فى الشركة وآرائه فى جيله ·· الخ ··

ـ كانت تربطنى بالمدير السابق علاقة العمل قبل أن يتولى ادارة الشركة فاختارنى سكرتيرا له ثم مديرا لمكتبه ، فهو قد اختارنى عن خبرة سابقة ··

خبرة سابقة ! · الحق انك فتحت بيتك القديم نادى قمار للسادة من رؤسائك ، نادى قمار وغرزة أيضا ، ولكن من المقطوع به انك ذكى نهاز للفرص !

ـ وفى مدة خدمتى فى مكتبه درست كل كبيرة وصغيرة مما يتصل بالعمل ، وتعرفت على جميع الكبار من المتعاملين مع الشركة .

ـ فى هذا يوجد الفرق بين العبقرى والعادى من السكرتاريين ·

ـ ومديرى هو الذى رشحنى للوظيفة عند نقله منها الى الخارج ··

ـ نعم الترشيح ! ، ولكن ما هى السياسة التى رسمتها للمستقبل ؟

وأفاض فى الحديث عن ذلك بثقة واعتداد ، ودون الآخر خلاصة وافية للكلام وهو يراقبه عن كثب ، ويسجل فى ذاكرته حركاته وسكناته ، وعندما انتهى التحقيق قام زهران وقال وهو يتجه الى الداخل :

ـ إنتظر حتى اقدمك الى زوجتى ··

آه ·· فايقة ! ·· الجارة القديمة ! ·· ترى كيف أصبحت اليوم ؟ ! · تزوجها زهران أيام التلمذة وكان جارا لأبيها عم سلامة سائق الترام · ترى كيف تتبدى اليوم فى هذه الفيللا ؟!

ورجع حامد زهران يسير بين يدى فتاة فى العشرين ، حلية



براقة ، ووجه مستعار السـمات من الشرق والغرب • ربـاه أهى زوجة جديدة •

وتم التعارف ، وجرى الحديث بالانجليزية أكثر الوقت ، وكانت المباهاة تصرخ فى وجه زهران الضاحك • ولكن أين فائقة ؟ •• ماتت أم طلقت ؟!

لم تكن الصورة لتتم حتى يتأكد من هذه النقطة • ومضى من توه الى عطفة الكرمانى بباب الشعرية ، الى مسكن عم سلامة القديم ، وفى أول العطفة عـلم من كواء بلدى بأن عم سـلامة توفى من سنوات ، وأن ابنته فائقة فاتحة دكان سـجائر وحلوى أسـفل البيت • واقترب من البيت منفعل الصدر وهو يحاذر أن تراه حتى وقع عليها بصره وهى جالسة وراء الطاولة لا يبدو منهـا سوى وجهها وعنقها • وكانت تدخن سيجارة وقد بدا وجهها أكبر من سنه بعشر سنوات على الأقل كوجه محمد عبد السلام كاتب نيابة المنيا • وبدت شاردة الطرف متجهمة ومستسلمة للمقادير • وتذكر كم كانت مثالا للصبر والحيوية والأمل فشعر بأن أنبل ما فى صدره ينحنى لها رثاء واحتراما ••

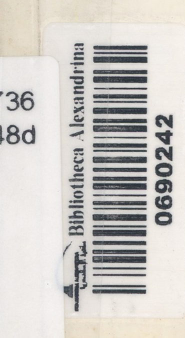
وغادر عطفة الكرمانى ضيق الصدر بعكارة الجو • ومضى يفكر فيما جمع من مواد لدراسته ويحللها تحليـلا أوليا وهو يتساءل :

ـ ترى أى معنى ستتمخض عنه هذه الصورة القديمة ؟!

الفهرس

رقم الايداع ٢٠٢٨
الترقيم الدولى ٧ ـ ٢١١ ـ ٣١٦ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٢ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ١٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه